

# الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس وجوارها في القرن السادس عشر

## سيّار الجميل

### المقدمة :

تعد مدينة القدس في مركزها وأطرافها من أعرق المناطق التاريخية في العالم، إذ كانت ولم تزال وستبقى تشغل تفكير الإنسان واهتماماته وتوجهاته. كما كانت عليه منذ عصور سالفه، ولعل من أبرز العوامل التي جعلتها مرتكزاً تاريخياً أساسياً للجذب والدفع السكاني:

1 - المكانة المقدسة التي حظيت بها على امتداد عصور تاريخية وللأديان الثلاثة السماوية: اليهودية والنصرانية والإسلام.

2 - المكانة الجغرافية التي تتمتع بها في قلب العالم القديم قبل العصر الحديث، فضلاً عن جغرافيتها المؤثرة على امتداد العصر الحديث.

3 - المكانة التاريخية التي اكتسبتها على امتداد العصور والأحقاب، ليس من خلال مركزيتها السياسية لأنها لم تكن عاصمة لأية دولة عدا مملكة اللاتين الصليبية، بل لكونها ذات تأثير بالغ في توجيه أحداث وظواهر تاريخية كبرى في العلاقات بين الدول والكيانات التي أثمرت حالات من صراع الشرق مع الغرب سواء أكان ذلك في العصور الوسطى أم العصر الحديث.

إن هذه الدراسة ستعالج على مهل وباختزال شديد إحدى أبرز الظواهر الأساسية في حياة مدينة القدس وأطرافها إبان العصر الحديث الذي شغله فيها

التاريخ العثماني وبالتحديد القرن السادس عشر الميلادي، باعتبارها إحدى أبرز المدن التي عُنِي بها العثمانيون أولاً، ثم التعرف على عروبة مجتمعها المتنوع في المركز والمحيط ثانياً، والتوغل في كشف تباينات تاريخها السوسولوجي المحلي وحالات تلك «التباينات» التي توارثها أبناء مدينة القدس في علاقاتهم وارتباطاتهم ثالثاً، وسيوصلنا ذلك، بطبيعة الحال، إلى جملة من الاستنتاجات الأكيدة والمختصة التي لها نفعها وأهميتها في الحاضر والمستقبل رابعاً، أي بمعنى: الكشف عما يسند مقوماتنا العربية إزاء القدس وهي التي تتعرض اليوم لأقسى التحديات لمواجهة المستقبل، وفي مقدمتها: الدعاوى الصهيونية الخاطئة في جعل القدس عاصمة أزلية لإسرائيل، وتجريدها من عروبتها وأصالتها وموارثها وتواريخها، وإفراغها من محتوياتها الاجتماعية الأصيلة.

### أهمية الدراسة وإشكالية البحث:

إن الحاجة ماسة وضرورية للعناية بالتواريخ المحلية الاجتماعية والاقتصادية لمدينة القدس من خلال فحص موارثها وبنيتها التاريخية وتحليلها بعد طرح فرضيات وإثارة تساؤلات من أجل البحث عن إجابات والتوصل إلى مزيد من الاستنتاجات. إن عشرات الدراسات والبحوث التي ينشرها الإسرائيليون عن القدس فضلاً عن عدد من المستشرقين والمهتمين الغربيين، لا يُوازِيها ألبتة ما يُنشر عربياً عن القدس... وحتى ذلك الذي نشر سابقاً أو الذي ينشر اليوم عربياً لا يوازي أولاً في قيمته العلمية ما ينشره الخصوم أو الأعداء أو حتى الآخرين. ناهيك عن كونه - ثانياً - لا يرد ولا يتفحص ما ينشر عن القدس في لغات متعددة.

وأزعم أن في ورقتي البحثية المتواضعة هذه، ثمة إجابات علمية وصريحة عن مسائل أساسية وجوهرية في حياة القدس التاريخية. ذلك أنني أثير بعض الإشكاليات التاريخية. في التباينات الاجتماعية والسكانية والتي عرفتھا اللحظات التاريخية الصعبة التي انطلقت منها تلك «المسائل» و«القضايا» التي أعتقد - وربما كنت مخطئاً - أن محصلتها الجوهرية تكفي لخدمة مستقبل

القدس عربياً وإسلامياً إزاء المخاطر والتحديات الصهيونية في القرن المقبل، وستكون المسألة السكانية وموازنتها المستقبلية إذا ما عرف العرب استخدامها هي السلاح الحقيقي في إبقاء القدس عربية، ذلك لأن الديموغرافية العربية هي التي ستقبض على أنفاس الديموغرافية الإسرائيلية على امتداد الخمسين سنة القادمة. ويحاول المعنيون والمؤرخون الصهاينة العناية بهذه المسألة عناية فائقة... جنباً إلى جنب السياسة الصهيونية في تطبيقاتها من خلال محاولة إفراغ مدينة القدس القديمة من سكانها الأصليين، وذلك باستئصال وجودهم من خلال هدم منازلهم وإبعادهم وإيذائهم. لعل أبرز الكتب الجديدة التي تعتنى بمسألة حيوية كهذه هو كتاب السير مارتن كيلبرت الموسوم بـ «القدس في القرن العشرين» الذي يدلي بمعلومات تاريخية ومعاصرة من دون توثيقها، أو تبريرها بملاحظات، إذ لا يتضمن كتابه شيئاً منها ما عدا روايات مستقاة بهوامش من الصحافة العبرية بعيداً عن المصادر الوثائقية المؤكدة<sup>(1)</sup>. وهو يقول بأن: كل زائر إلى القدس كان يصاب بالدهشة عندما يجد أن اليهود يؤلفون غالبية هناك. كان الأمر كذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر<sup>(2)</sup>! في حين لا تثبت المصادر الوثائقية العثمانية هذا الرأي، ولا يتفحص المؤرخون العرب خطأ معلومات كهذه.

ولكن؟

لماذا ركزت على القرن السادس عشر في دراسة التباينات الديموغرافية؟  
ثمة أسباب أساسية وقفت حيال إثارة إشكاليات هذا «البحث»:

1 - لقد وصلت ديموغرافية القدس إلى درجة متدنية جداً إبان بدايات القرن السادس عشر، وهي حالة لم تصلها ألبتة في تاريخها الطويل. إن نظرة دقيقة ومتفحصة في (الشكل رقم 1) تعلمنا عن ذلك كالذي سنحلله بعد قليل.

2 - إن بداية القرن السادس عشر هي اللحظة التاريخية التي تتوسط ثمانية

(1) Sir M. Gelebert, Jerusalem in the Twentieth Century, (Bemlego, 1996).

Ibid, p. 7.

قرون بالضبط تشكل طوالها احتلال الصليبيين لبيت المقدس عام 1099م/492هـ وانهيار الحجم الديموغرافي للقدس إثر مصرع قرابة 70 ألف نسمة من سكان القدس مسلمين ونصارى. ثم تصاعد الحجم السكاني للقدس على امتداد 3 قرون (12 - 15). ثم انهيار الحجم السكاني للقدس على امتداد القرن الخامس عشر، وتدني مختلف الحالات الاجتماعية والاقتصادية عند اللحظة التاريخية التي تتوسط هذه الفترة الزمنية الطويلة (8 قرون) ثم انطلاق التصاعد في الحجم السكاني للقدس على امتداد 3 قرون (16 - 19) وصولاً إلى نهايات القرن التاسع عشر التي سجلت أعظم هجمة تاريخية تتعرض لها القدس من قبل اليهود الصهاينة الذين وصلت قوتهم إلى الدرجة التي تمنحهم في المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897م المناداة بتأسيس إسرائيل وطناً للإسرائيليين.

3 - ما هو المعنى التاريخي لهذا التقسيم الكمي؟

إن القدس قد وقعت في بدايات القرن السادس عشر بين أقصى تحديين تاريخيين عظيمين، أولهما: الهجمة الصليبية القاسية عند قفلة القرن الحادي عشر الميلادي (1099م)، وثانيهما: الهجمة الصهيونية القاسية التي بدأت عند قفلة القرن التاسع عشر الميلادي (1897م). وبين الهجمتين التاريخيتين ثمانية قرون كاملة تتوسطها بالضبط بدايات القرن السادس عشر الميلادي.

ولكن إذا كان العرب المسلمون قد حرّروا القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد مرور (88) سنة على احتلالها من قبل الصليبيين الفرنجة وذلك في 20 أيلول/سبتمبر 1187م بعد موقعة حطين الفاصلة يوم 3 تموز/يوليو 1187م<sup>(1)</sup>، فإن العرب المسلمين ما يزالون عاجزين عن تحرير القدس وفلسطين بعد مرور قرابة (100) سنة على المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897م، وبعد مرور (50) سنة على تأسيس كيان إسرائيل عام 1947م، وبعد مرور (30) سنة على فقدان مدينة القدس كاملة عام 1967م!

(1) راجع التفاصيل التاريخية التي كتبها الباحث في: سيّار الجميل، النسر الأحمر: صلاح الدين الأيوبي، (عمان، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص ص 65، 75، 79.



الشكل رقم (1): رسم بياني بالديموغرافية التاريخية لمدينة القدس  
عبر عشرة قرون 10 - 20 (يهود)

والرسم البياني<sup>(1)</sup> (شكل رقم 1) يوضح حجم الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس بعد عشرة قرون بدءاً بالقرن الحادي عشر وانتهاءً بالقرن العشرين، مع ملاحظة الأساسيات التالية:

1 - الهجمة الصليبية الأولى في احتلال الفرنجة للقدس عند نهاية القرن الحادي عشر، والنقصان الكبير في عدد سكانها... ثم تصاعد الديموغرافية التاريخية بامتداد تحرير القدس على يد الأيوبيين وصولاً إلى أعلى ما بلغته في العهود المملوكية إبان القرن الرابع عشر وتعود أسباب ذلك «التصاعد» الديموغرافي في القدس لعوامل تاريخية منها:

(1) لقد إعتمدت في إعداد هذا «الرسم البياني» على معلومات مرجعين أساسيين، هما:

D. Hutteroth and Kemal Abdulfattah, Historical Geography of Palastine, Transjordan and Southern Syria, (Erlangen, 1977), pp. 45-55.

Josiah C. Russel, «The Population of the Crusader States» in, وأنظر مقارناً أيضاً:

Norman P. Zacour and Harry W. Hazard (eds), A History of the Crusades, Vol. V: The Impact of the Crusades on the Near East (Madison, 1985), pp. 116-124.

- (1) إستقبال القدس لأعداد كبرى من النازحين من الدواخل الإقليمية والمهاجرين من الأطراف الجغرافية.
- (2) الضغوطات المغولية والتتارية على سكان المشرق والعراق الذين لاذوا ببلاد الشام.
- (3) الدعة والأمن والاستقرار والرخاء الذي تمتعت القدس به كله.
- (4) الأهمية البالغة التي أولاهها السلاطين المماليك للقدس الشريف عمراً وازدهاراً<sup>(1)</sup>.

2 - الانهيار التاريخي للديموغرافية التاريخية في مدينة القدس والنقصان المريع للسكان فيها في القرن الخامس عشر. وكان وراء ذلك التخلخل المفجع في بدايات القرن السادس عشر عند نهايات العهود المملوكية، أسباب متنوعة، منها:

- (1) الكوارث الطبيعية وتعاقب نكبات الطاعون والأوبئة المستمرة.
- (2) الحروب الداخلية وموجات القحط والجفاف التي ضربت منطقة الشرق الأوسط في القرن الخامس عشر.
- (3) الغزوات التتارية المدمرة التي قادها تيمورلنك سنة 803هـ/1400م.
- (4) هجرة سكان القدس مندفعين عنها نظراً لما أصابها من شظف في الحياة المعيشية الاقتصادية<sup>(2)</sup>.

(5) تعلمنا حوليات مجير الدين أنه في بدايات القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي لم يستطع أحد المضي لأداء الحج ولمدة عشر سنوات إلى القدس بسبب عمليات البدو القاسية ضد المسافرين في قوافلهم بين

(1) راجع التفاصيل في: يوسف غوثية، نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، (عمّان، دار الحياة للنشر والتوزيع، 1982)، ص ص 115 - 120.

(2) أنظر تحليلات المؤرخ دونالد ب ليتل في:

Donald P. little, «Jerusalem and Egypt during the Mamluk Period» in Amnon Cohen and Gabriel Baer, Egypt and Palestine, New York, 1984, pp. 75-8.

القدس والبحر الأحمر<sup>(1)</sup>.

### تحليل لقيمة مصادر الموضوع ومراجعته التاريخية:

أريد القول، عموماً، ومن خلال عدة تجارب بحثية في تواريخ المدن عبر التاريخ، بأن مدينة القدس قد حظيت - وبشكل إستثنائي - باهتمامات المؤرخين والعلماء والمستشرقين والرحالة والآثاريين على امتداد تاريخ طويل، قل نظيره إزاء مدن أو حواضر أخرى في العالم أجمع! ناهيك عن اهتمام حكومات ودول وهيئات وإرساليات وقناصل ومبشرين ودوائر وأرشيات نظراً لمكانتها الروحية - الدينية المقدسة لأصحاب الديانات السماوية الثلاث: الإسلامية والمسيحية واليهودية، فلا عجب أن تتوفر أمام الباحثين والدارسين والمهتمين ركامات من المعلومات والكتابات والسجلات والرحلات والتقارير والوثائق والتأليف التاريخية المتنوعة.

أما في ما يخص هذا «الموضوع» الذي انتويت إعطاء صورة تحليلية وتفصيلية في جزئية محددة منه بأسلوب «ال Focusing» (لتوسيع مساحة الرؤية التاريخية) وبمنهجية في التحليل الكمي «Quantitative Analysis»، فإن ذلك كله يستدعي مني التوقف قليلاً عند أبرز ما يعين الباحث في التاريخ الاجتماعي للقدس من خلال تبايناتها في الديموغرافية التاريخية إبان القرن السادس عشر؛ فماذا نجد؟

### أولاً: المصادر الأساسية:

لعل أبرز مصدرين عثمانيين وثنائيين أسعفاني بالمعلومات والأرقام المؤكدة، كما كانا قد أسعفا غيري من المؤرخين والباحثين في تواريخ القدس المحلية وجواراتها من الملحقات بها، وخصوصاً في التعرف على

(1) راجع ما كتبه المؤرخ مجير الدين العليمي (ت 927هـ/ 1520م) في كتابه المعروف: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، (جزءان)، (بيروت: دار الجيل، 1973)، ج 1، ص

ديموغرافيتها التاريخية في القرن السادس عشر، هما:

1 - دفاتر الطابو العثمانية المسماة بـ «طابو تحرير دفترى» التي تحتوي على معلومات موسعة ومؤكدة عن الضرائب، فضلاً عن أدق المعلومات عن السكان وتفصيلات عن القصبات والأحياء والحارات، فضلاً عن المرافق الخدمية كالحمامات والخانات والأسواق. ناهيك عن الأرياف التي تتوزعها القرى والمزارع والمراعي والمضارب والدساكر والتخوم... وهي الدفاتر المسماة بـ «المفصل والإجمال»، وهناك عدة دفاتر تختص بالقدس وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية<sup>(1)</sup>.

2 - وهناك سجلات محكمة القدس الشرعية التي لا تقل أهميتها عن دفاتر الطابو، إذ تحتوي هي الأخرى على معلومات موسعة عن الحياة اليومية وتفصيلها الاجتماعية والاقتصادية منذ بدايات العهد العثماني. إذ إنها تعد من أقدم سجلات بلاد الشام قاطبة حيث تبدأ منذ عام 1530م<sup>(2)</sup>. ولعل أبرز من اهتم وحلل سجلات محكمة القدس الشرعية كمصدر أساسي في كتابة التواريخ الاقتصادية والاجتماعية، هو المؤرخ جون ماندافيل في بحثه المستفيض عنها

(1) جميعها من محفوظات رئاسة الوزراء في إسطنبول بتركيا؛ لكنها لم تقتصر على الطابو فقط، فهناك دفاتر الأوقاف والأملاك والأملاك السنوية والماليات المدورة وإجماليات الأولوية وغيرها، فضلاً عن محفوظات مديرية الأراضي في العاصمة أنقرة. ولكن أبرز ما يفيد ديموغرافية القدس وأطرافها هي دفاتر الطابو العثمانية المختصة بها (وأهمها دفتر طابو رقم 516 بكافة حججه. تتواجد نسخ مصورة عن الأصل، يحتجز عليها مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية).

(2) كانت محاكم القدس الشرعية تحتفظ بأصول سجلاتها التي وقعت بأيدي الحكومة الإسرائيلية بعد إحتلال القدس الشرقية عام 1967، وبعملية ذكية جداً استطاع المسؤولون الأردنيون من تصويرها كاملة والاحتفاظ بها. ويحتجز مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية عليها، وهي كثيرة جداً. ولقد كتب الباحثة بشارة ب. دومانى بحثاً مستفيضاً عنها، أنظر: Beshara B. Doumani, «Palestinian Islamic Court Records: A Source for socio-economic History» in Middle East Studies Association Bulletin, vol. 19, No. 2, Dec.



والمنشور عام 1975<sup>(1)</sup>.

ومن المصادر غير العثمانية، تفيدنا - هنا - معلومات بعض الرحالة الأوروبيين عما سجلوه من معلومات بصدد القدس، وخصوصاً عن المسيحيين الأوروبيين النازحين نحوها في القرن السادس عشر، بعد وصولهم إليها حجيجاً<sup>(2)</sup> أو مهاجرين سواء أكانت أسبابها دينية مقدسة، أم طائفية متمذهبة. وكيف كانت ردود الفعل التي استقطبتها الأماكن المقدسة في فلسطين أثر تفاقم حركة مارتن لوثر وكالفن البروتستانتية في أوروبا الوسطى والغربية<sup>(3)</sup>.

أما عثمانياً وعربياً، فثمة مصادر وكتب تاريخية وبيوغرافية تفيدنا معلوماتها المهمة، كتلك التي كتبها: المحبي<sup>(4)</sup> واللقيمي<sup>(5)</sup> وأولياء جلبي<sup>(6)</sup>

(1) Details in, John Mandaville, «The Jerusalem Sharia Court Records: Assuplement and Complement to the Central Ottoman Archives» in Mosh'e Ma'oz (ed.), Studies on Palestin During the Ottoman Period, (Jerusalem: The Hebrew University, Institute of Asian and African Studies, 1975), pp. 517-521.

(2) ثمة معلومات موسعة عن رحلات الأوروبيين إلى القدس بشكل خاص في القرن 16م، أنظر: Stephen Yerasioms, «Voyageurs Europeens en palestine Ottoman au xvle siecle (1517-1600)», in Revue d'Etudes Palestiniennes, No. 11, (1984), pp. 77-104.

(3) راجع عن المضاعفات التاريخية لتزوج الحجاج من الرهبان والقساوسة الأوروبيين إلى القدس وبيت لحم من الألمان والفرنسيين أثر عمليات حركة لوثر وكالفن في:

Nathan Schur, «Itineraries by pilgrims and Travellers as source Material for the History of Palestine in the Ottoman Period», in David Kushner (ed.), Palestine in the late Ottoman Period, (Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi & Leiden and E.J. Brill, 1986), pp. 380-404.

(4) محمد أمين بن فضل الله المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 4 مجلدات، القاهرة، 1868م.

(5) أسعد مصطفى بن أحمد بن سلامة بن محمد اللقيمي (ت 1178هـ/1764م)، موانح الأنس برحلتني إلى وادي القدس، (مخطوط) يحتز على نسخة مايروكوفيلم منه مركز الوثائق والمخطوطات/الجامعة الأردنية تحت رقم (593). (الأصل محفوظ في الخزنة العامة بالرباط). أنظر: أوراق 43، 65، 66، 71.

(6) محمد ظلي درويش أوليا جلبي، سياحتنامه سي (4 مجلدات)، إستانبول، 1302هـ.

والمرادي<sup>(1)</sup> والعمرى<sup>(2)</sup> والشهابى<sup>(3)</sup> والحسينى<sup>(4)</sup> وغيرهم.

### ثانياً: المراجع الأساسية:

يعد المستشرق برنارد لويس أول من كشف عن قيمة تلك الوثائق العثمانية في عدد من بحوثه، كما قام بتحليل معلوماتها، خصوصاً بالنسبة لمدينة القدس في القرن السادس عشر<sup>(5)</sup>. . . . . ففتح الباب أمام المؤرخين والباحثين العرب والأوروبيين والإسرائيليين للاستفادة منها. ثم نشر المستشرق U. Heyd كتابه «الوثائق العثمانية عن فلسطين، 1552 - 1615»، كاشفاً عن قيمتها التاريخية والأساسية في دقة المعلومات والعناصر والأسماء والإدارة والضرائب والأراضي . . . إلخ<sup>(6)</sup>.

ويكتب المؤرخ الفلسطيني الأستاذ عارف (باشا) العارف كتابه التفصيلي (المفصل) في التاريخ المحلي عن القدس وينجح في الكشف عن معلومات تاريخية جديدة، بإستخدامه لعدد من الوثائق العثمانية والكتابات الرسمية، ولا يمكن لأي باحث في تاريخ القدس الاستغناء عنه<sup>(7)</sup>. وعن باحث يهودي

(1) أبو الفضل محمد خليل بن بهاء الدين محمد المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، القاهرة (د.ت)، (بغداد: مكتبة المثنى، 1306هـ مصوراً).

(2) ياسين الخطيب العمرى، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، (3 مجلدات)، تحقيق ودراسة: سيّار الجميل، إسكتلندا، 1983.

(3) الأمير حيدر الشهابى، الغرر الحسان في أخبار الزمان، نشره: نقيم مقبعب، بيروت، 1900.

(4) حسن عبد اللطيف الحسينى، تراجم أهل القدس في القرن الثالث عشر الهجرى، دراسة وتحقيق: سلامة نعيمات، عمان، د: الجامعة الأردنية، 1985.

(5) Bernard Lewis, «Studies in Ottoman Archives», in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. XVI, No. 3 (1954), pp. 471-485.

(6) U. Heyd, Ottoman Documents on Palestine 1552-1615, Oxford, 1960, pp. 77-98.

(7) التفاصيل في: عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، (القدس: مطبعة المعارف: 1961).

معروف هو M. Ma'oz الذي كتب وحرر كتاباً عن فلسطين إبان العهد العثماني بالاعتماد على أرشيفات عثمانية موجودة في إسرائيل<sup>(1)</sup>.

وكان الأستاذ المؤرخ محمد عدنان البخيت قد أولى - منذ بدايات السبعينات - الحياة السكانية لبلاد الشام إبان القرن السادس عشر أهمية بارزة، وكتب أطروحته للدكتوراه وخص بها إقليم سوريا العثماني في القرن السادس عشر<sup>(2)</sup>. ومنها انطلق ليولي عنايته حول السكان المسيحيين في إقليم دمشق إبان القرن المذكور. ومن خلال استخداماته للوثائق العثمانية<sup>(3)</sup>... فضلاً عن اهتماماته بدراسة خاصة بالمدن الفلسطينية سواء أكانت نابلس أم حيفا وغيرها، ثم ركز جهوده على وثائق القدس وسجلاتها ومخطوطاتها في نشره لفهرسين أساسيين<sup>(4)</sup>.

وقد تخرج على يديه، عدد كبير من الباحثين اختص ثلاثة منهم بتواريخ القدس الحديثة، كان أولهم الباحث محمد يعقوب الذي كتب رسالة ممتازة عن «القدس في القرن السادس عشر»<sup>(5)</sup>. وكان ثانيهم د. سلامة نعيمات الذي تناول في رسالة رصينة تحقيق كتاب حسن عبد اللطيف الحسيني الموسوم

(1) Mosha Ma'oz, Ottoman Reform in Syria and Palestine, Oxford, 1968.

وراجع الكتاب الذي حرره ماءووز.

(2) راجع: Muhammad A. S. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus in the sixteenth Century, (Ph. D. Thesis, SOAS, the University of London, 1972).

(وقد نشرت في بيروت عام 1982).

(3) أنظر التفاصيل في:

idem, «The Christian Population of the Province of Damascus in the sixteenth Century», in Benjamin Braude et Bernard Lewis, (eds.), Christian and Jews in the Ottoman Empire, vol. II, (New York: Holmes and Meier, 1982).

(4) محمد عدنان البخيت (وآخرون)، القدس الشريف: وثائقها وسجلاتها ومخطوطاتها المصورة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية (عمان: الجامعة الأردنية، 1991).

وانظر أيضاً: محمد عدنان البخيت (وآخرون). الكشف الإحصائي الزمني لسجلات المحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية في بلاد الشام، (عمان: الجامعة الأردنية، 1984).

(5) راجع: محمد يعقوب، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب/الجامعة الأردنية، 1986.

«تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري» (الثامن عشر الميلادي)<sup>(1)</sup>. وكان ثالثهم د. زياد المدني الذي تناول في رسالته «مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215 - 1245هـ/ 1800 - 1830م»<sup>(2)</sup>.

ولعل أبرز مؤرخ يهودي معاصر اهتم بموضوع القدس العثمانية، هو الإسرائيلي أمنون كوهن Amnon Cohen الذي كان قد اشترك لأول مرة مع أستاذه المستشرق برنارد لويس في نشر كتاب مهم عن سكان المدن الفلسطينية في القرن السادس عشر<sup>(3)</sup>، وفيه معلومات ثمينة وموثقة عن المصادر العثمانية وقد استفاد الأول من تجربة الثاني في المنهج والتوثيق، ولكن ثمة وجهات نظر طرحها في كتابهما لا يمكن الاطمئنان إليها، خصوصاً عندما حمّلا بعض النصوص التاريخية أكثر مما تحتمل وخصوصاً ما يتعلق بالضرائب العثمانية على النصارى واليهود<sup>(4)</sup>. وكان أمنون كوهن قد اعتنى في ما سبق بتاريخ فلسطين في القرن الثامن عشر وكانت تلك هي أطروحته<sup>(5)</sup>. وفي عام 1984، نشر كوهن كتابين مهمين، كان أولهما برفقة المؤرخ غبرييل بير عن مصر وفلسطين في تاريخهما الحديث<sup>(6)</sup>؛ وكان كتابه الثاني يختص بالقدس إبان القرن السادس عشر عالج فيه موضوع الحياة اليهودية في ظل الإسلام<sup>(7)</sup>. وفي عام

(1) راجع: سلامة نعيمات (محقق)، حسن عبد اللطيف الحسيني، مرّ ذكره سابقاً.

(2) راجع: زياد المدني، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215 - 1245هـ/ 1800 - 1830م، (أطروحة دكتوراه منشورة)، عمان: بنك الأعمال، (1996).

(3) راجع: Amnon Cohen and Bernard Lewis, Population and Revenue in the towns of Palestine in the sixteenth century (Princeton & New Jersey: Princeton University Press, 1978).

(4) Ibid., p. 49-86.

(5) Amnon Cohen, Palestine in the 18th Century, (Jerusalem: The Magnes Press, 1973).

(6) Amnon Cohen, and Gabriel Baer, Egypt and Palestine (Jerusalem, 1984).

(7) Amnon Cohen, Jewish life under Islam: Jerusalem in the sixteenth Century, (Cambridge, Mass, and London, 1984).

1989، نشر كوهن كتابه الرصين عن الحياة الاقتصادية في القدس العثمانية<sup>(1)</sup>، وفيه تحليلات ممتازة لمعلومات وثائقية، ولكن مع بعض تفسيراته ووجهات نظره التي لا يمكن أن نطمئن لها ولا نستطيع قبول بعض مصادرها<sup>(2)</sup>.

ولا يمكننا في هذا المجال أن ننسى جهود المؤرخ التركي خليل ساحلي أوغلو الذي اعتنى من خلال الوثائق العثمانية بالتواريخ الاقتصادية لبلاد الشام سواء ما يخص السكان والضرائب والميزانيات والأراضي<sup>(3)</sup>. وقد اهتم مؤرخ تركي آخر هو محمد ابشرلي بأوقاف وأملاك المسلمين في القدس<sup>(4)</sup>.

أما بقية المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين أو الأوروبيين والمستشرقين، فهناك كم هائل من الكتابات والدراسات والأبحاث العامة والمختصة، سواء تلك التي عالجت تواريخ القدس لما قبل العثمانيين، أو حللت مواضيع محددة في تواريخ القدس الجغرافية والمحلية والاقتصادية والاجتماعية، وبعض ما قدم من أوراق بحثية في مؤتمرات دولية، أخص بالذكر منها بعض أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ومنهم: عبد العزيز الخياط في عنايته بـ «أوقاف القدس»<sup>(5)</sup> وهشام نشابه بتحليله

(1) راجع: Amnon Cohen, Economic life in Ottoman Jerusalem, (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).

(2) Ibid., pp. 36, 51-4, 69, 93, 107.

(3) التفاصيل في: خليل ساحلي أوغلو، «ميزانيات الشام في القرن 16» بحث ألقى في مؤتمر بلاد الشام، الجامعة الأردنية 20 - 25 نيسان/أبريل 1974. وراجع بحثه «نسبة سكان المدن إلى سكان الريف في القطر السوري» بحث ألقى في المؤتمر الدولي الثاني للدراسات العثمانية: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، مركز سيرمدي: تونس 15 - 21 مارس/آذار، 1986.

(4) أنظر: محمد ابشرلي، «أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين وألوية غزة والقدس الشريف»، (استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 1982).

(5) عبد العزيز الخياط، «أوقاف القدس؛ أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، 19 - 24 نيسان 1980.

«مدارس القدس في العهد العثماني»<sup>(1)</sup>، وغيرهم<sup>(2)</sup>.

### المحددات الجغرافية:

إن القدس الشريف ليس إقليمياً بحد ذاته، بل هو ناحية جغرافية تقع امتداداتها ضمن إقليم من المرتفعات الوسطى في الأرض الفلسطينية. وإذا كانت جغرافيتها الإسلامية قد توسعت أو إنكمشت قبل العصور الحديثة؛ نتيجة لمؤثرات العلاقات الساخنة بين المسلمين والصليبيين على امتداد تاريخ طويل، فإن محددات ناحية القدس الشريف قد تبلورت بشكل واضح الأبعاد والمعالم في أواخر العهود المملوكية كجزء مقدس وأصيل في الدولة المملوكية الممتدة بين مصر وبلاد الشام للفترة 648 - 792هـ/1250 - 1390م. إذ يعلمنا العليمي (سنة 927هـ/1520م) (أي: عند بدايات العصر العثماني) قائلاً بأن: «الحدود المنسوبة لبيت المقدس عرفاً، من القبلة عمل بدل سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام يفصل بينهم قرية سكير وما حاذاها وهي من

(1) هشام نشابه، «مدارس القدس في العهد العثماني»، المرجع نفسه.

(2) منهم: كايون S.D. Goitein في مقالته «القدس» في الإنسكلوبيديا الإسلامية The Encyclopedia of Islam, 2 nd ed., vol. V, pp. 332-9.

ولا بد لي أن أذكر استفادتنا من المؤرخين الذين أرخوا للقدس قبل وبعده القرن السادس عشر، ومنهم: إيرا لايدوس I.M. Lapidus في كتابه عن المدن الإسلامية؛ وم. ايفي يوناه M. Avi Yonah في كتاب Jerusalem، وأيضاً ه. بوس H. Busse، وج. براور J. Praver في كتابه الممتاز عن «القدس اللاتينية» ومن خلال مصادره الثمينة، وكتب يوسف غوانمة عن القدس الأيوبية والمملوكية، وغ. باتيه G. Bateh عن المسيحيين تحت الهيمنة العثمانية فضلاً عن المجهودات مؤرخين آخرين عن القدس العثمانية، أذكر منهم: عارف العارف في كتابه «المسيحية في القدس» وعبد العزيز عوض في أطروحته عن متصرفية القدس» ولا بد لي من الإشارة إلى الكتاب الذي حرره K. J. Asali والمرسوم:

Jerusalem in History, Essex, 1989.

وانظر دراسة المحرر في الكتاب نفسه عن «القدس تحت حكم العثمانيين 1516 - 1531»، ص ص 200 - 227.

عمل مدينة القدس، ومن الشرق نهر الأردن المسمى بالشرية. ومن الشمال عمل مدينة نابلس يفصل بينهما قرية سنجل وعزون، وهما من أعمال القدس، وتتمه الحد رأس وادي بني زيد وهو من أعمال الرملة. ومن الغرب مما يلي رملة فلسطين بيت نوبة وهي من أعمال القدس، ومما يلي غزة قرية عجور وهي من أعمال غزة<sup>(1)</sup>.

إن نيابة القدس المملوكية قد حددتها فواصل طبيعية - جغرافية عن غيرها من المناطق المتاخمة لها، ذلك أن مرتفعات سنجل التي تفصل جبال القدس عن جبال نابلس ويفصل وادي بني زيد القدس عن الرملة، أما جبال سكير فهي التي تفصل القدس عن جبال الخليل<sup>(2)</sup>. معنى ذلك: إن منطقة بيت المقدس ودساكره وأطرافه تمتد جغرافياً من مركزية القدس بشكل مثلث طبيعي الأضلاع بين ثلاثة مراكز أساسية فلسطينية، هي: نابلس والرملة والخليل... لتشكل امتدادات أخرى باتجاهات مختلفة.

أما عثمانياً، فغدت النيابة ناحية ولكن لم تحدث أية تغييرات في بدايات حكم العثمانيين لها، ولكن بعد صدور «نظام الشرق» على عهد السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566م)، عدلت المنطقة المقدسية كي تتلاءم مع بنود التنظيمات الإدارية العثمانية، فتوسعت حدود ناحية القدس الشريف شمالاً حيث امتدت من قرية سنجل إلى قرى كفر عطية والمزارع وقراوة بني زيد، وشكلت قرى الدوير وعابود ودير أبي مشعل الحدود الشمالية الغربية. أما حدودها الجنوبية، فلقد تقلصت من قرية سكير إلى قرى بيت ساور وبيت تعمير. وقد ظلت حدودها الجنوبية الغربية كما كانت عليه في العهود المملوكية، وانتقلت الحدود من طرف الرملة إلى الغرب قليلاً لتصل إلى قرية يالو الواقعة في الجنوب الغربي من قرية بيت نوبا. ولقد بقي وادي بني زيد

(1) العلمي، الأنس الجليل.. (سبق ذكره)، ج 2، ص 83.

(2) راجع ما كتبه إحسان النمر من كتابه الموسع: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، (4 أجزاء)، (نابلس: مطبعة النمر، 1961 - 1975)، ج 2، ص 204، ص ص 206 - 220.

هو الحد الفاصل بين ناحية القدس وبين الرملة أما الحدود الشرقية، فلم تتلها أية تعديلات، حيث بقي نهر الأردن (= الشريعة) يمثل تلك الحدود<sup>(1)</sup>.

إن الجغرافية التضاريسية لإقليم المرتفعات الوسطى الذي يشكل 26٪ من مساحة فلسطين، والذي تمتد ناحية القدس على أراضيها أهميتها في معرفة حركة الجذب والدفع السكاني الداخلي أولاً، ثم إنها توصلنا إلى معرفة الجغرافية الكنتورية لمركز القدس كمدينة مستطيلة عاشت عربياً وإسلامياً تاريخاً محلياً ضمن حدودها التي تشكلها أسوارها ثانياً.

إن مرتفعاتها شديدة الانحدار شرقاً نحو النهر وتدرجية الانحدار غرباً نحو الساحل، ومن أبرز جبالها: الطور (الزيتون) شرقاً وبعدها عنها (3) كلم والفاصل هو وادي جهنم. وجبل المشارف (الرصد) Scopus شرقاً، والفاصل عنها هو وادي الجوز، ثم جبال بيت محسير والجورة وصرعه غرباً، وجبال تل الفول (على بعد 6 كلم منها)، والكابوس (على بعد 8 كلم منها)، والنصبة (على امتداد بعد 2 كلم منها) والعاصور والباطن والنبي صموئيل وكلها تقع شمالاً؛ أما في جنوبها، فهناك جبال: المكبر (الثوري) ويشرف عليها، ورأس عمار والسناسين. ثمة جبال أخرى تقع شرق بيت لحم: الفريديس والمنطار تنحدر كلها نحو الشرق.

ولما كانت هذه الجبال تحيط بالمركز والناحية معاً، فلقد تكونت عنها أودية عديدة تجري فيها مياه الأمطار نحو نهر الأردن والبحر الميت شرقاً ونهر روبين الذي يصب في المتوسط غرباً، وهي أودية كثيرة بإتجاهات مختلفة... ولما كانت الناحية ذات طبيعة جبلية تكثر فيها المرتفعات، فلقد قلت فيها السهول، ما خلا منطقتين سهليتين: الساهرة شمال المدينة بجانب الطور،

(1) راجع التفاصيل في: G.A. Smith, The Historical Geography of the Holy Land, New York, 1970, pp. 71-9.

وقارن مع اليعقوب، ناحية القدس.. (سبق ذكره)، ص ص 20 - 69 (معتمداً في تثبيت حدود الناحية إبان القرن 10هـ/16م على دفتر طابو رقم 516).



والبقعة في الجنوب الغربي منها وهما سهلان خصيبان<sup>(1)</sup>.

واعتمدت ناحية القدس الشريف في حياتها، على الأمطار التي يجمعها السكان ثم العيون الكثيرة التي تجري مياهها في مسارب متنوعة، وإستطاع السكان من بناء قنوات وبرك مختلفة داخل المدينة وخارجها لإستخدامات شتى. ولعل من أشهر البرك الموجودة داخل المدينة: بركة بني إسرائيل وبركة حمام الأسباط وبركة حمام البصير وبركة حمام البطرك. وتنتشر في خارج المدينة: بركة السلطان وبركة ماملا وبرك سليمان الثالث وبرك المرجع. ولعل من أشهر القنوات التي تغذي البرك بالمياه: قناة السبيل وقناة العروب. وقد أجرى العثمانيون عدة ترميمات لتلك البرك المائية بعد أن كان الخراب والتلف قد لحق بها<sup>(2)</sup>.

#### التأسيس العثماني:

ليس واضحاً لدينا التاريخ المضبوط لدخول الأتراك العثمانيين مدينة بيت المقدس، ولكنه بالتأكيد قد جرى ضمن الانتصارات التي حققها سليم الأول (1512 - 1520م) ضد المماليك سنة 1516م/922هـ<sup>(3)</sup>. وعليه، فقد سقطت مدينة القدس بيد العثمانيين عام 1516، ضمن أسلوب التتابع السلمي لا الاكتساب العسكري، وذلك بعد دخول السلطان سليم الأول (1512 - 1520)

(1) التفصيلات في الجغرافية التضاريسية والكتتورية، في:

أ. س مرمرجي الدومينيكي، بلدانية فلسطين العربية (بيروت: مطبعة جان دارك، 1948)، ص 233. ومقارنته مع: حسن عبد القادر وجماعته في كتابهم: أسماء المواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين (عمان: منشورات اللجنة الأردنية للتعبير والترجمة والنشر، 1973)، ص 197. وكتاب: قسطنطين خمار، موسوعة فلسطين الجغرافية، (بيروت: مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، 1969)، ص 116 - 117.

(2) عارف العارف، المفصل... (سبق ذكره). ص 437 - 438. واليعقوب، ناحية القدس... (سبق ذكره)، ص 20-18. (اعتماداً على العليمي والهروي وسجلات المحكمة الشرعية).

(3) راجع Goitein في مقاله Al-Kuds في: The Encyclopedia of Islam, 2nd ed., vol. V، في: p. 333.

العاصمة السورية دمشق في شهر أيلول/سبتمبر 1516 بعد قضائه على المماليك في معركة مرج دابق 23 آب/أغسطس 1516<sup>(1)</sup>.

وتؤكد المعلومات التاريخية، أن سليماً الأول زار القدس على رأس وفد عثماني رفيع المستوى، ومكث فيها قليلاً، جاس في دروبها، ثم صلى تحت قبة الصخرة التي جدد بناءها، ووقف على قبور الأنبياء، وأضرحة الأولياء. ثم دار في أطراف القدس وأطلع على أماكنها المقدسة، لكنه لم يمكث فيها غير أيام قليلة لكي يغادرها بعد أن غدت مع جوارها من اللواحق الفلسطينية، تابعة رسمياً وفعلياً للعثمانيين. وقد أمر سليم الأول بإعادة تعمير سور مدينة القدس للمحافظة عليها، ثم تابع توسعاته إلى مصر فأنهى هناك الوجود المملوكي كاملاً، وعاد عبر سوريا أيضاً ليعين أحد زعماء المماليك السابقين وهو جان بردى الغزالي والياً على سوريا ثمن خيانة الأخير لقائده السلطان المملوكي الأشرف الغوري في معركة مرج دابق؛ وقد أضاف الغزالي إلى ولايته: القدس وصفد والكرك<sup>(2)</sup>.

ولما جاء السلطان سليمان القانوني إلى الحكم (1520 - 1566م) عقب أبيه سليم الأول، فإن أعماله التاريخية القوية تدلنا دلالات واضحة على ما حصل من تطورات رائدة وكبرى في المدن العثمانية، وخصوصاً في المدن العربية الكبرى، والقدس في مقدمتها. ذلك أنه اهتم بتجديد أسوارها وتدعيمها على غرار ما أمر به أبوه، وذلك خلال السنوات 1537 - 1541م، وأنجز المهندسون البارعون أربع نوافير مياه جميلة بعد أن عمّرت بركة السلطان الواقعة جنوبي باب الخليل عند سفح جبل زايون، كما عمر السبل (جمع: سبيل مياه) الكائنة في طريق الواد وفي ساحة الحرم إلى الشمال من

(1) أنظر: سيّار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من أجل بحث رؤيوي معاصر، ط 1، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1989)، ص ص 336 - 353.

(2) المعلومات التاريخية عن: أحمد فريدون بيك (ت 1583م) في كتابه القديم: منشآت السلاطين، ج 1 (إستانبول 1274 - 1275/1857 - 1858)، ص ص 452 - 456.

باب شرف الأنبياء، وأقام المدرسة التنكيزية عند باب السلسلة. ثم عمد إلى قبة الصخرة سنة 1542م فعمرها وأعاد تبليطها معمرًا جدران الحرم القدسي وأبوابه، وسد الباب الذهبي فيه، وفتح باب ستنا مريم، ثم عمر الباب الغربي لقبة الصخرة مجددًا القاشاني في قبة السلسلة من الداخل، وأنشأ مسجداً فوق جبل الزيتون، كما وأنشأت زوجة السلطان سليمان عام 1552م، تكية عرفت بتكية خاصكي سلطان في عقبة المفتي، كما أنشأت المدرسة الرصاصية. لقد كانت أوقاف القدس قد كثرت عهدئذ، والتي بنيت من قبل السلطان وزوجته حرم سلطان التي نالت ارتياح الناس من الناحية الاقتصادية إذ قامت حرم سلطان ببناء مطبخ للشوربة وأوقفته لاستقبال الطلبة والفقراء وقد اندثرت آثارها اليوم. وفرضت في عهده رسوم على الحجاج المسيحيين يدفعونها عند دخولهم كنيسة القيامة، وأمن العثمانيون حماية الطريق بين القدس ويافا<sup>(1)</sup>.

لقد سجلت مثل هذه الإنجازات العثمانية الأولى نقطة مضيئة وضيئة في تاريخ مدينة القدس عند بدايات العصر الحديث، إذ يبدو للمؤرخين المحليين أن القدس عاشت حركة عمرانية نشيطة، ورخاء اقتصادياً واسعاً. مما دفع الناس للإقبال عليها من أطراف عدة للسكن فيها، فازدهرت كثيراً مع استمرار وتواصل حالة التعايش الديني بين أوساط الناس سواء كانوا من المسلمين وأهل الذمة أولاً، أو كانوا من السكان الأصليين والنازحين المهاجرين نحوها ثانياً... وتدلنا الآثار الباقية في القدس العريقة على قيمة ما أحدثه العثمانيون فيها، والتي ما زلنا نشاهدها حتى اليوم في متحف الحرم القدسي، أو تلك

(1) مقالة Goitein في The Encyclopedia of Islam، (سبق ذكرها)، ص 334. وانظر أيضاً: عارف العارف، المفضل... (سبق ذكره)، ص 504، للتأكيدات، راجع: سجلات المحاكم الشرعية (س.م.ش) سجل رقم 270 (الوقفيات)، وسجل رقم 50 وقارن مع معلومات دفاتر الطابو المختصة بالقدس، المرقمة: 342، 427، 131، 602). ولا بد لي أن أشير لزيادة المعلومات إلى كتاب: مرتضى أسعدي، بيت المقدس (بالفارسية)، (تهران: بنیاد دائرة المعارف إسلامي، 1367)، ص 70 - 76، (نقلاً عن الإنسكلوبيديا الإسلامية). مع مراجعة تحليلات المؤرخين: برنارد لويس وهايد وأمنون كوهن.

التي نجدها مسجلة بمعلوماتها الدقيقة في الأرشيفات العثمانية.

### الديموغرافية التاريخية لسكان القدس:

يسجل الحاج بورشارد في توصيفاته للأرض المقدسة الطوائف والأديان والمذاهب والعناصر السكانية التي كانت القدس ملتقهاها على مر تواريخ العصور الوسطى إذ يقول: «ويقيم في الأراضي المقدسة رجال من جميع الأمم التي تقطن تحت السماء» وهو يصف تنوعات سكان القدس كالتالي: فهناك المسلمون والمسيحيون المتنوعون: اللاتين (الذين وصفهم بأسوأ جميع أهل الأرض)<sup>(1)</sup>، والسريان (الذين لا يثقون باللاتين)، ويقطن السريان بين المسلمين ويشبهونهم، وهناك اليونان، والأرمن، والجورجيون والنساطرة واليعاقبة، والكلدانيون الميديون، والفرس، والأحباش الأثيوبيون، والأقباط المصريون، وشعوب أخرى تعتنق المسيحية<sup>(2)</sup>.

تنبؤنا المعلومات التاريخية أن أعداد سكان ناحية القدس الشريف بدأت بالزيادة منذ أوائل العهد العثماني بعد تلك العهود المملوكية الطويلة. وكانت نيابة القدس الشريف قد تعرضت قوتها الديموغرافية للمزيد من الضعف إثر اجتياح الكوارث والطواعين لمنطقة الشرق الأوسط التي قل سكانها بشكل مهول في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري<sup>(3)</sup>. وتخبّرنا أرقام المسوحات السكانية التي أجراها العثمانيون على عهد السلطان سليمان القانوني عام 1525م/932هـ الذي اهتم بذلك اهتماماً كبيراً، بأن عدد سكان القدس المتنوعين من المسلمين والنصارى واليهود بلغ ذروته في منتصف

(1) راجع توصيفات: الحاج بورشارد (من دير جبل صهيون) في كتابه: وصف الأرض المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد عبدالله البشاوي، مراجعة وتدقيق، مصطفى الحيارى، ط 1، (عمان: دار الشروق، 1995)، ص 171.

(2) المصدر نفسه، ص 172 - 173.

(3) راجع وقارن: يوسف غواتمة، المرجع السابق، ص 151 Josiah C. Russel, op.cit., pp.

القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي<sup>(1)</sup>.

يقسّم السكان في إقليم القدس - على غرار التقسيمات السكانية العربية الأخرى في أقاليم عربية أخرى - إلى ثلاثة أنواع، هي: أهل المدينة/ أهل الريف/ وأهل البادية (البدو)<sup>(2)</sup>.

ويتنوّع المسلمون في المدينة على مذاهب أربعة من السنة، هي: الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، ودوماً ما كان ينضاف إلى سكان المدينة على امتداد السنوات ومن خلال عمليات الهجرة الدينية، أعداد معتبرة من القادمين المتجددين، ومنهم: المغاربة والأنطاكيين والحلبيين والحمويين والطرابلسيين والمصريين والبغداديين والموصليين والأروام (الترك) والبوشناق (البوسنيين) والهنود والروس.

أما النصارى المقدسيون، فإنهم يتميزون بتنوعهم أيضاً، فهناك المسيحيون المقدسيون الأصلاء ينضاف إليهم مهاجرون آخرون من: الأحباش والأرمن والافرنج والكرج والسرمان والفرنسييسكان والموارنة... الذي ازدادوا من بدايات القرن إلى نهاياته بحكم الهجرات الخارجية والداخلية كانتقالات الملكانيين من بعض القرى إلى القدس<sup>(3)</sup>. وأعتقد أن ليس هناك تنوع سكاني مسيحي في أي مكان في العالم مقارنة بما كانت عليه القدس نتيجة عمليات

(1) من الأهمية بمكان الاستفادة كثيراً من: دفتر طابو رقم 516، ص 15 - 16. ودفتر طابو رقم 178، ص 6 - 12. ومقارنتها مع التحليلات التاريخية لكل من المؤرخين: برنارد لويس وأمنون كوهن ومحمد يعقوب.

(2) للتفصيلات في التاريخ الاجتماعي العربي الحديث، أنظر: سيّار الجميل، بقايا وجزور: التكوين العربي الحديث، ط 1، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص 198 - 203.

(3) ثمة مراجع أساسية لا بد من الاستفادة من تحليلات المعلومات التاريخية:

Muhammad Adnan al-Bakhit, «The Christain Population...», op.cit., pp. 52-5. See also; Cohen and Lewis, op.cit., p. 120.

واليعقوب، المرجع السابق، ص 83 - 84. وكلها اعتمدت معلوماتها ما سجله بعض الرحالة بصدد أصول بعض الذين استقروا في القدس، ومنهم: بروشارد ويوراسيموس في أدبياتهم الجغرافية.

الجبذ والدفع الديموغرافي في القرن السادس عشر.

وعليه فإن الطوائف النصرانية في القدس، تتميز بتنوعها الكبير بين الملكانيين والسرّيان والأقباط واليعاقبة والأرمن والروم واللاتين الفرنجة والماردينيين.

أما اليهود، فقد كان عددهم في القدس قبل القرن المذكور ضئيلاً جداً لا يتجاوز المائتي نسمة، ولكنه ازداد قليلاً في القرن السادس عشر نتيجة هجرات اليهود بعد طردهم من إسبانيا الكاثوليكية عند نهاية القرن الخامس عشر إذ استقطبت القدس يهوداً من غزة وطرابلس الشام ومصر فضلاً عن اليهود الفرنج واليهود الأروام (الأتراك) لكي يشكلوا لهم تجمعاً في القدس وسط الأغلبية الساحقة من المسلمين<sup>(1)</sup>.

إن المسوحات السكانية العثمانية في القرن السادس عشر تعطينا معلومات تاريخية موثقة عن أعداد السكان في كل إقليم عثماني سواء كانت في عاصمته أم في محيطها أو جوارها من القرى والأرياف، وهي تعتمد في تقسيماتها السكانية على مفهومي «الخانة» و«المجرد»، فإذا كانت «الخانة» هي الوحدة الأسرية المعتمدة في الدولة العثمانية (ومعناها: الأسرة التي يكون متوسط عدد أفرادها 5 أشخاص)، فإن مصطلح «المجرد» يعني الشخص الواحد غير المتزوج كالذي تعنيه دفاتر الطابو العثمانية. فكيف إذن يتم احتسابنا لأعداد سكان القدس في المركز والمحيط (أي في المدينة والجوار)؟

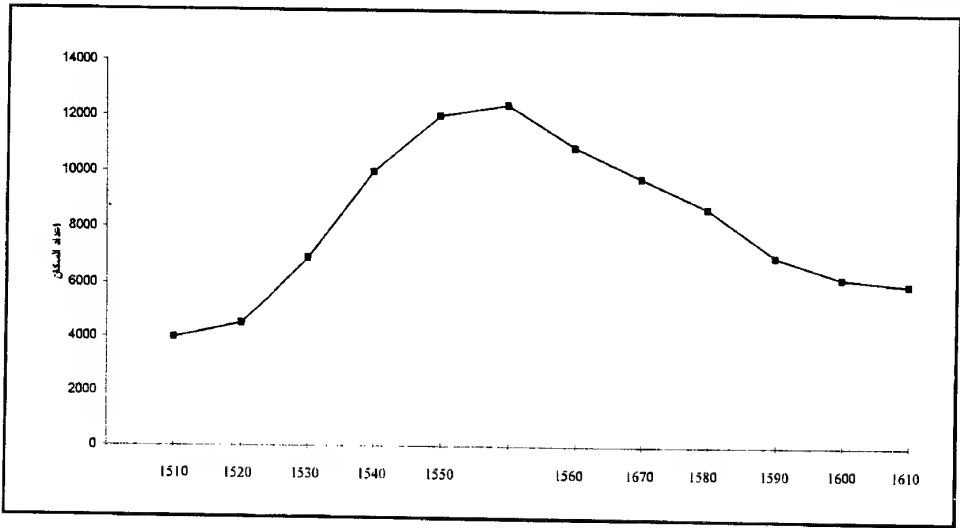
تعلمنا أرقام ثلاث سنوات معينة من القرن السادس عشر عن الأعداد أولاً وعن تزايدها ثانياً، 1 - ففي سنة 1525م/932هـ هناك (934) خانة (أي 4670 نسمة بحاصل ضرب 934 × 5) في مدينة القدس من المسلمين والنصارى واليهود يضاف إليه عدد (2) من المجرد، فيساوي إذن: حوالي 4672 نسمة.

2 - أما في سنة 1555م/963هـ (أي بعد منتصف القرن 16 بقليل)، فإن

(1) راجع - مع التحفظ - تحليلات أمنون كوهن في كتابه:

أعداد سكان مدينة القدس ستزداد إلى 2433 خانة (وحاصله الرقمي يساوي 12,065 نسمة) يضاف إليه العدد (142) من المجردين فيساوي الرقم حوالي (12,207) نسمة وهناك (193) نسمة من رجال الدين والأشراف وذوي العاهات (المعفيين من الضرائب) فيغذو الرقم (12,400) نسمة.

3 - وسنجد في سنة 1596م/1005هـ (أي عند الاقتراب من نهاية القرن 16 الميلادي)، أن أعداد سكان المدينة سينقص إلى (1330) خانة (وحاصله الرقمي يساوي 6650 نسمة) يضاف إليه العدد (76) من المجردين، فيساوي الرقم حوالي (6726) نسمة... بمعنى أن عدد سكان القدس قد تناقص خلال أقل من نصف قرن إلى قرابة النصف<sup>(1)</sup> (أنظر الرسم البياني في شكل رقم 2).



الشكل رقم (2): الرسم البياني لأعداد سكان القدس في القرن السادس عشر

(1) راجع أصل المعلومات في دفاتر طابو رقم (516)، ص ص 15 - 18 ودفتر إجمالي لواء الشام رقم 319، ص ص 35 - 41. وعن فهم معاني المصطلحات العثمانية المستخدمة في دفتر المفصل الإجمالي، يراجع عنها: Bernard Lewis, «Studies...» op.cit., pp. 469-499. وقد استفاد عدد من المؤرخين المحدثين من آراء وتحليلات المستشرق لويس، مع تفسيرات جديدة للمؤرخ التركي خليل ساحلي أوغلو في دراساته عن الديموغرافيات العثمانية.

## توزيعات المسلمين في مدينة القدس:

تخبرنا المعلومات التاريخية التي وفرتها لنا المراجع التاريخية (نقلاً عن الوثائق العثمانية وخصوصاً دفاتر الطابو المحلية وبقية وثائق رئاسة الوزراء التركية). إن المسلمين في مدينة القدس قد توزعوا في محلاتها السكنية وحاتها المعروفة بشكل متباين على امتداد ثلاثة أجيال من القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، إذ علمنا أن هناك إحدى عشرة محلة وحارة (أنظر: الخارطة المرفقة (خطط القدس في القرن 16م/10هـ)، وهي: الشرف، وباب القطنين والريشة والمغاربة وباب العمود وعقبة الست وباب حطة والزراعة وحارة بني حارث وحارة الجوالدة وحارة بني زيد. وهي مناطق شملت كل أنحاء مدينة القدس القديمة وعلى جوانبها الأربعة، ولكن الثقل السكاني من المسلمين يزداد في محلات: الشرف وباب القطنين وباب العمود وباب حطة والزراعة، وينخفض كثيراً في محلات الريشة والمغاربة وعقبة الست وحات بني حارث والجوالدة وبني زيد، بل وينعدم سكن المسلمين في الحارات الثلاث الأخيرة إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي<sup>(1)</sup>!

السؤال الآن: ما هي إحصائيات السكان المسلمين لأعداد مدينة القدس إبان القرن المذكور؟

إذا اعتمدنا التصنيف العثماني<sup>(2)</sup> في الخانات والمجردين، متخذين نسبة (5) أشخاص للخانة الواحدة، فإننا نجد أن أعداد المسلمين في القدس ستكبر أكثر من ثلاثة أضعاف خلال جيل واحد (30 سنة)... ثم تنخفض قرابة نصف ما سجلته من أعداد بين أواسط القرن مقارنةً بنهاياته، أي بعد

(1) معلومات عن خطط القدس العمرانية من خلال دراسة مصادر تاريخية عديدة منها كتاب:

الأبنية الأثرية في القدس، (إعداد): المدرسة البريطانية لعلم الآثار بالقدس، القدس، 1977.

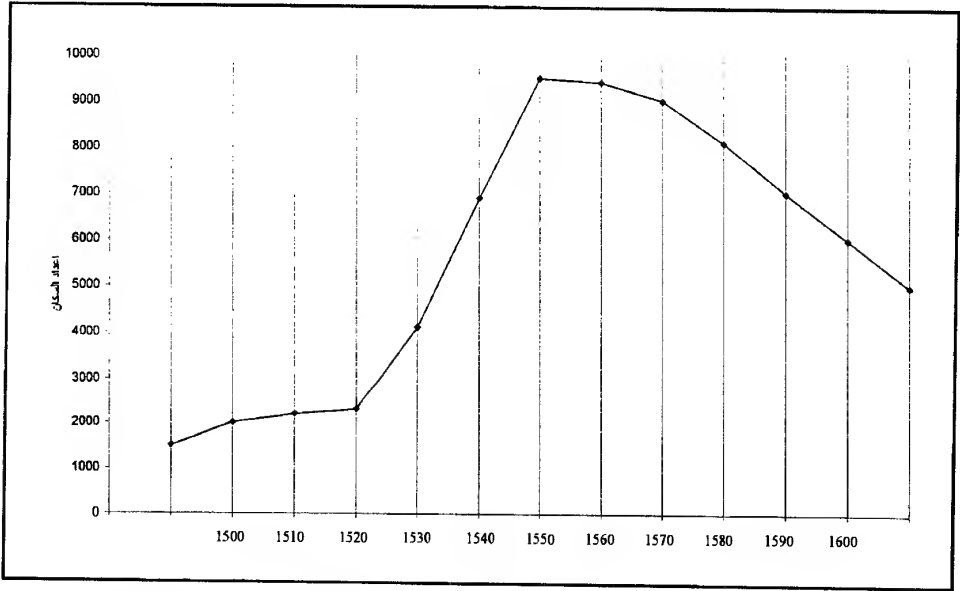
(2) الإعتماد على المراجع التاريخية حول سكان القدس المسلمين في القرن السادس عشر،

مؤكداً على أمنون وبرنارد لويس واليعقوب، مقارنةً ذلك مع معلومات دفاتر الطابو العثمانية

وسجلات محكمة القدس الشرعية المذكورة أرقامها في أعلاه.



مرور جيل آخر (30 سنة أخرى). دعونا نقارن بين مجاميع الإحصائيات الثلاث في الجيل الأول من القرن السادس عشر، أي في سنة 1525م/932هـ (مع مطلع عهد السلطان سليمان القانوني 1520 - 1566م)، ثم في الجيل الثاني من القرن المذكور، أي في سنة 1555م/963هـ (مع اقتراب انتهاء عهد القانوني)؛ ثم في الجيل الثالث من القرن المذكور، أي في سنة 1596م/1005هـ (مع مرور أكثر من عشر سنوات على انتهاء الجيل وعند نهايات القرن المذكور بالضبط). فماذا نستحصل إذن؟ (أنظر الرسم البياني في شكل رقم 3).



الشكل رقم (3): الرسم البياني لأعداد المسلمين في القدس إبان القرن (16)

(1) إن أعداد المسلمين في مدينة القدس هي قرابة (2617 نسمة) بواقع (523 خانة  $\times$  العدد 5 = 2615 + 2 مجرد = 2617 نسمة). وذلك في سنة 1525م/932هـ (الجيل الأول من القرن السادس عشر).

(2) إن أعداد المسلمين في مدينة القدس هي قرابة (9712 نسمة) بواقع (1924

خانة × العدد 5 = 9620 + 92 مجرد = 9712 نسمة). وذلك في سنة 1555م/963هـ (الجيل الثاني من القرن السادس عشر).

(3) إن أعداد المسلمين في مدينة القدس هي قرابة (6353 نسمة) بواقع (1250 خانة × العدد 5 = 6250 + 103 مجرد = 6353 نسمة). وذلك في سنة 1596م/1005هـ (الجيل الثالث من القرن السادس عشر).

### المسيحيون النصارى: توزيعهم ونمو أعدادهم في القدس إبان عهد القانوني:

لقد جرى أول إحصاء سكاني في الدولة العثمانية بعد مجيء السلطان سليمان القانوني إلى السلطة بخمس سنوات، أي في سنة 1525م/932هـ ثم جرت إحصاءات أخرى للنفوس لأسباب متنوعة وعلل مختلفة، ولكن سنقف عند معلومات تاريخية بين جيلين اثنين ولأربعة أرقام متباينة، كي تتوضح أمامنا صورة توضح تزايد أعداد المسيحيين النصارى في مدينة القدس بطوائفهم الأساسية أو الجماعات النازحة إليها إبان عهد القانوني<sup>(1)</sup>. . . . ولعل أضخم الأعداد من النصارى في القدس هم الذي تضمّهم الطائفة الملكانية (أو الملكية)، والذين ينتشرون - أيضاً - في جوار القدس وأطرافها من القرى والداكر. . . . وتقل الأعداد كثيراً عند طائفة اليعاقة والطائفة السريانية. فضلاً عن نصارى آخرين كانت القدس تجتذبهم دوماً بحكم مركزيتها الدينية في الحج سواء إليها أو إلى أطرافها، ومنهم: الأقباط والموارنة والأرمن والأروام والكاثوليك من اللاتين. وكان نصارى القدس يتركزون في جهاتها الشمالية الغربية وفي حارات صغيرة نسبياً، وهي المسماة بمحلات: النصارى وأولاد قبيطة ورحبة ابن عزالدين والملاط والإفرنج والتبانة، ومن المفيد أن نذكر - كما يشير إلى ذلك عدد من المؤرخين والسائحين الموثوقين - بأن النصارى المقدسيين لم يشاركهم سكناهم في هذه الحارات غير المسلمين، كما أنهم

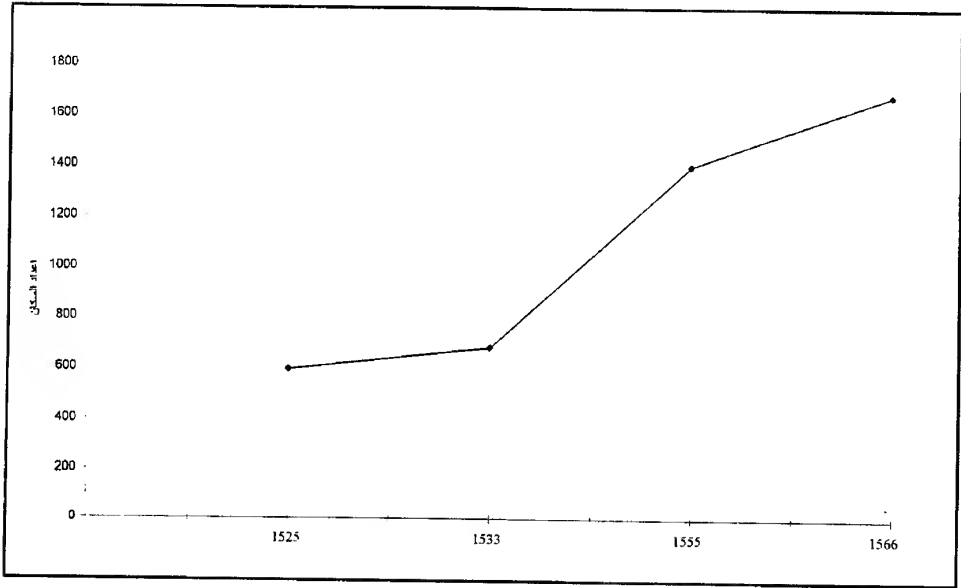
(1) التفصيلات في: G. Bateh, Les Chrétiens de la Palestine sous la domination ottoman,

Jerusalem, 1963.

(مع عدم الإطمئنان لبعض أحكامه).

شاركوا المسلمين في حياتهم بمحلي الشرف والريشة، وعایشهم فيهما اليهود أيضاً<sup>(1)</sup>.

أما أعداد النصارى المسيحيين، فإن الوثائق العثمانية التي استخدمها عدد من المؤرخين في كتاباتهم الرصينة، تشير إلى نموها على امتداد عهد السلطان سليمان القانوني<sup>(2)</sup>... فكيف يتم احتساب ذلك؟ (أنظر الرسم البياني في الشكل رقم 4).



الشكل رقم (4): الرسم البياني لتزايد عدد السكان المسيحيين في القرن (16)

- (1) مراجعة وتدقيق المعلومات التاريخية عن: سجلات محكمة القدس الشرعية، ومنها - مثلاً -:  
 سجل (4)، حجة (4) (941هـ/1534م)، ص 305.  
 سجل (6)، حجة (2) (943هـ/1536م)، ص 48.  
 سجل (58)، حجة (1) (986هـ/1578م)، ص 83.  
 سجل (83)، حجة (2) (1010هـ/1601م)، ص 148.

(2) راجع ما كتبه: برنارد لويس وأمنون كوهن وباتيه واليخيت واليعقوب مقارنة بما ذكره:

E. Ashtor, «Jerusalem in the late Middle Ages» in Yerushalayim, vol. ii, No. 5, pp. 71-97.

(1) في سنة 1525م/932هـ، تتوفر على الخانات التالية (دون مجرد):

ملكانيون (96) + سريان (8) + يعاقبة (15) = 119 خانة.

$$(119 \times 5 = 595 \pm \text{سنة}).$$

(2) في سنة 1533م/940هـ، تتوفر على خانات ومجردين ورهبان على التوالي:

$$(124 \text{ خانة} \times 5 = 620 \pm \text{نسمة}).$$

(620) + (20) مجرد ملكانيين + (6) مجرد أقباط + (40) راهباً في

$$\text{أديرة} = 686 \text{ نسمة}.$$

(3) في سنة 1555م/963هـ، تتوفر على خانات ومجردين ورهبان على التوالي:

ملكانيون (179) + سريان (19) + يعاقبة (بلا) + أقباط (53) = 251 خانة.

$$(251 \times 5 = 1255 \pm \text{نسمة}).$$

(1255) + (18) مجرد ملكانيين + (5) مجرد سريان + (8) مجرد

$$\text{إقباط} + (115) \text{ رهبان في أديرة} = 1401 \pm \text{نسمة}.$$

(4) في سنة 1566م/974هـ، تتوفر على خانات ومجردين ورهبان على التوالي:

ملكانيون (184) + سريان (22) + يعاقبة (بلا) + أقباط (43) +

$$\text{أرمن} (54) = 303 \text{ خانة}.$$

$$(303 \times 5 = 1565 \pm \text{نسمة}).$$

(1565) + (17) مجرد ملكانيين + (4) مجرد سريان + (4) مجرد

$$\text{أقباط} + (91) \text{ راهباً في أديرة} = 1681 \pm \text{نسمة}.$$

### ثالثاً: اليهود في مدينة القدس

تخبرنا المصادر التاريخية الوثيقة التي اعتمدها عدد من المؤرخين والمستشرقين المحدثين بمعلومات جد مهمة وأساسية حول اليهود في مدينة القدس إبان القرن السادس عشر<sup>(1)</sup>، ومدى ازدياد أعدادهم فيها على مدى

(1) راجع التفصيلات في: Amnon Cohen, Ottoman Documents on the Jewish Community of Jerusalem in the Sixteenth Century, (Princeton: Princeton University Press, 1978), pp.111-7.

ثلاثة أجيال منه، كما كان هو الحال بالنسبة للمسلمين والنصارى المسيحيين، ولكن نسبة اليهود النازحين من أسبانيا إثر طردهم منها على يد كل من فرديناند وأزابيلا في نهايات القرن الخامس عشر، وخصوصاً بعد سقوط غرناطة بأيديهم سنة 1492م/898هـ كما أنهم لاقوا اضطهادات مريرة من قبل الكاثوليك حكومات ومجتمعات أوروبية فكان أن نزح قسم كبير منهم عبر شمال إفريقيا نحو فلسطين، واستطاع قسم قليل منهم أن يصل إلى الأراضي العثمانية عبر أوروبا ليحتمي في أراضيها<sup>(1)</sup>. ومما يدعم المعلومات الأولى: ورود أسماء بعض اليهود المغاربة في صفحات السجلات الشرعية بالقدس وهم من السيفارديم. ناهيك عن يهود وصلوا القدس من غزة وطرابلس الشام ومصر... فضلاً عن اليهود الإفرنج واليهود الأروام (الأتراك)، إذ جاء الأوائل بواسطة البحر المتوسط في حين وصل الآخرون بواسطة البر العثماني<sup>(2)</sup>. ويستدل عدد من المؤرخين على انتماءاتهم الأولى من خلال أسمائهم ذات الدلالات المكانية<sup>(3)</sup>.

سكن اليهود في ثلاث محلات بالقدس، هي: الشرف والريشة والمسلخ الوسطي، إلا أنهم كانوا يعيشون المسلمين والنصارى في أغليبتهم، دون أن ينفردوا في أية محلات كتجمعات منعزلة (ghettos) كما جرت عليها عاداتهم المعروفة منذ القدم وفي كل المدن الآسيوية والأوروبية التي سكنوا فيها. وتدلنا المعلومات الوثائقية (من دفاتر الطابو العثمانية) بأن يهود محلي الريشة والشرف كانوا أكثر عدداً من يهود محلة المسلخ... وكانت لهم مشيختهم اليهودية إذ التي يقوم يهود القدس أنفسهم بتعيين شيخهم على طائفتهم ولكن شريطة أن يتم ذلك برضى القاضي الحنفي المعين في القدس من قبل

(1) التفصيلات التاريخية في أطروحة ألن فريدمان:

Ellen Friedman, Spanish Captives in North Africa, (Ph. D. Thesis), Wisconsin, 1983, pp. 41-5.

Bernard Lewis, The Jews of Islam, London, 1984, p. 75.

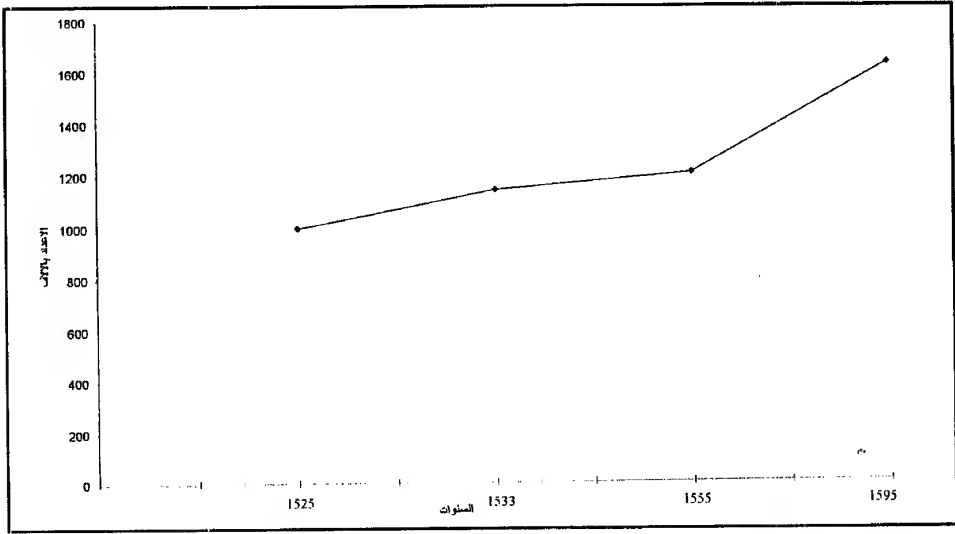
وقارن مع ما كتبه: E. Ashtor, op.cit., pp. 85-6.

Loc, cit.

(3)

الدولة<sup>(1)</sup>.

لنتوقف قليلاً عند إحصاء أعدادهم السكانية على امتداد ثلاثة أجيال، كالذي أجريناه على أعداد المسلمين والنصارى المسيحيين من خلال الأرقام التي زودتنا بها الوثائق العثمانية: (أنظر الرسم البياني في الشكل رقم 5).



الشكل رقم (5): الرسم البياني لزيادة عدد اليهود في القدس إبان القرن السادس عشر

- 1 - في سنة 1525م/932هـ، تتوفر على خانات اليهود التالية (دون مجرد):  
 $199 \times 5 = 995 \pm$  نسمة من اليهود في القدس (خلال الجيل الأول).

(1) معلومات وثنائية عن محكمة القدس الشرعية:

- سجل رقم (2)، حجة (3) لسنة 939هـ/1532م، ص 212.  
 سجل رقم (37)، حجة (1) لسنة 966هـ/1558م، ص 380.  
 سجل رقم (80)، حجة (1) لسنة 1008هـ/1599م، ص 499.  
 سجل رقم (4)، حجة (4) لسنة 941هـ/1534م، ص 305.  
 سجل رقم (6)، حجة (2) لسنة 943هـ/1536م، ص 48.  
 سجل رقم (58)، حجة (1) لسنة 986هـ/1578م، ص 82.

- 2 - في سنة 1533م/940هـ، تتوفر على خانات اليهود ومجردهم التالية:  
 $5 \times (224) = 1120$  نسمة + 19 (مجرد) =  $1139 \pm$  نسمة من اليهود في القدس.
- 3 - في سنة 1555م/963هـ، تتوفر على خانات اليهود ومجردهم التالية:  
 $5 \times (238) = 1190$  نسمة + 11 (مجرد) = 1201 نسمة من اليهود في القدس (خلال الجيل الثاني).
- 4 - في سنة 1594م/1003هـ، تتوفر على خانات اليهود ومجردهم التالية:  
 $5 \times (321) = 1605$  نسمة + 13 (مجرد) = 1618 نسمة من اليهود في القدس (خلال الجيل الثالث).

ديموغرافية ريف القدس وبدوها في القرن (16):  
 أولاً: الريف: المزارعون المستقرون

إمتلك إقليم القدس ريفاً متنوعاً ومزدهراً منذ القدم؛ ولكن أغلب قراها ودساكرها وبلداتها الصغرى قديمة عريقة تعود تواريخها إلى عصور قديمة وبدايات الفترات الأولى من العصور الوسطى. وتعلمنا المعلومات التاريخية واللاهوتية، أنها ازدهرت على أيدي المسيحيين الأوائل، ثم عادت فازدهرت مرة أخرى على أيدي المسلمين الأوائل وتعود أسباب ازدهار ريف إقليم القدس إلى ما تمتع به جغرافياً من عوامل مناخية وتضاريسية ووفرة ينابيع وعيون وبرك وقنوات كانت مدعاةً لاستقرار الإنسان وإنتاجيته الزراعية... فضلاً عن كون لواحق المدينة التي تعد محطات اقتصادية للقوافل التجارية<sup>(1)</sup>.

تدلنا المعلومات العثمانية في القرن السادس عشر على أن إقليم القدس كان يمتلك (147) قرية، و(98) مزرعة وذلك في سنة 932هـ/1525م، ثم ازداد عدد القرى إلى (169) قرية في سنة 978هـ/1570م<sup>(2)</sup>. وتعلمنا المواد الوثائقية

(1) التفصيلات الجغرافية الحديثة في: D. Kahan, Agriculture and Water in the West Bank and Gaza. Jerusalem, 1983, pp. 53-7.

(2) لعل أفضل باحث اعتنى بإحصائية قرى القدس (بالاستناد على الوثائق العثمانية) في القرن السادس عشر، هو: اليعقوب، المرجع السابق، ص ص 23 - 71.

عن سكان قرى الإقليم، أنهم من المسلمين والنصارى المسيحيين.

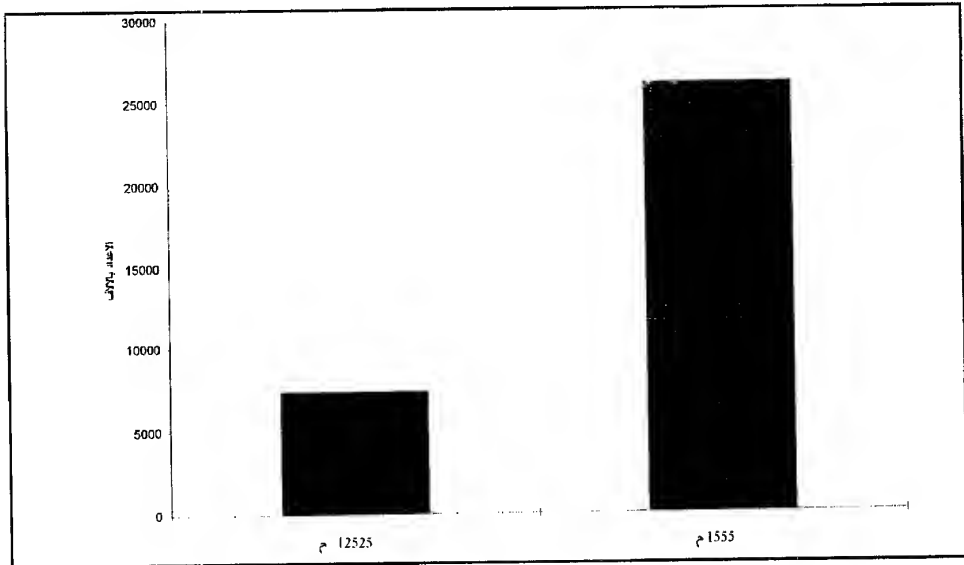
وقد ازداد عددهم على امتداد (30) سنة (جيل واحد) إلى قرابة (4) أضعاف:

(1) فقد سجلت الأرقام العثمانية سنة 932هـ/1525م: (1391) خانة و(118) مجرداً، وستغدو<sup>(1)</sup> الحصيلة كالتالي:

$$1391 \times 5 = 6955 \text{ نسمة} + 118 = 7073 \text{ نسمة.}$$

(2) وسجلت الأرقام العثمانية سنة 963هـ/1555م: (5217) خانة و(270) مجرداً، وهنا ستغدو الحصيلة كالتالي:

$$5217 \times 5 = 26085 \text{ نسمة} + 270 = 26391 \text{ نسمة (أنظر الرسم البياني في الشكل رقم 6).}$$



الشكل رقم (6): زيادة سكان ريف القدس خلال 30 سنة

(1) أن أفضل مادة تاريخية حول الموضوع، هي التي يحتوي عليها دفتر طابو رقم (516)، الصفحات: 20، 31، 39، 41، 55، 61، 63، 65، 69.



إن الأرقام أعلاه تشمل الفلاحين والمزارعين في القرى والأرياف التي تتوزع في إقليم القدس، وهم السكان المستقرون في الضياع التي تشكل فضاء المحيط الاجتماعي الذي تشكله (169) قرية وبلدة صغيرة؛ ويعد هذا «الرقم» منخفضاً نسبياً إذا ما قورن بأرقام سكان أرياف وقرى وبلدات أخرى تحيط بمدن عربية أخرى معروفة، ويمكنني أن أحدد بعض الأسباب التي تقف وراء ذلك النقص الكبير في الديموغرافية السكانية لإقليم القدس مقارنة بما كان عليه حال ديموغرافيات سكانية لأقاليم عربية أخرى، مثل: دمشق ولبنان وحلب وطرابلس الشام والموصل<sup>(1)</sup>، ومن أبرز تلك «الأسباب»:

- 1 - لم يكن إقليم القدس ثرياً جداً بمروجه وسهوله ومياهه الجارية... وبالتالي زراعته أو منتجاته ومحاصيله، لكي تتكاثر فيه القرى والمزارع على غرار، ما امتلكته أقاليم ومدن عربية أخرى مجاورة، فلقد امتلكت كل من حلب والموصل - مثلاً - آلاف القرى.
- 2 - لقد استقطبت مدينة القدس ومحيطها أهميتها الدينية لأديان سماوية ثلاثة، فكانت مركز جذب ديني قبل أي عامل آخر، في حين كانت مدن عربية أخرى قد استقطبت مع محيطاتها القروية والفلاحية أكثر من مكانة استراتيجية من الناحية الاقتصادية والسياسية، وكان أغلبها مراكز جذب للقوافل التجارية الدولية والإقليمية، مثل دمشق وبغداد.

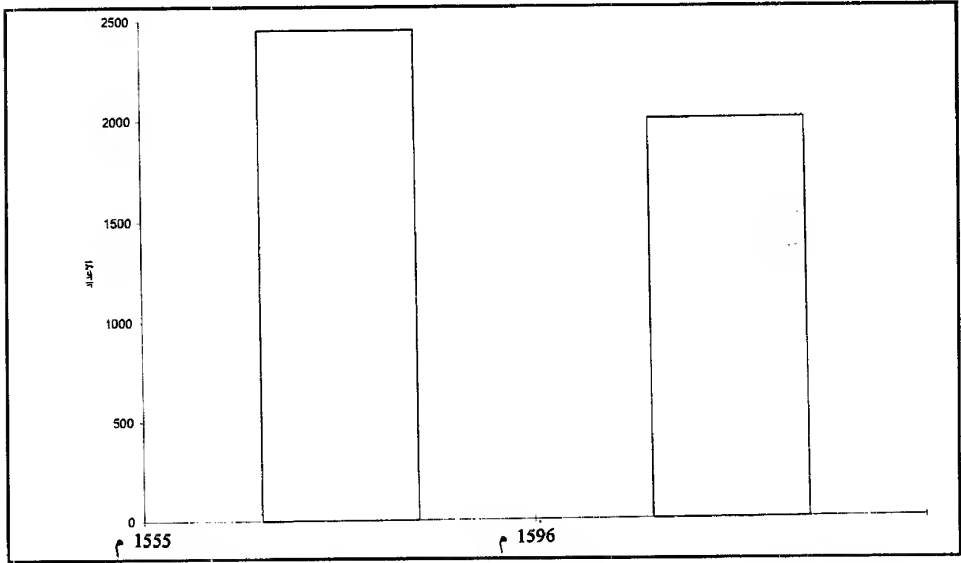
### ثانياً: البدو المستقرون

أما البدو في ناحية إقليم القدس، فلقد انتشرت عدة قبائل بدوية، واستقر بعضهم في عدة قرى منها، بينما بقيت غالبيتها في مضاربهم بالفيافي، يعتمدون الرعي أساساً لحياتهم. وكثيراً ما كانت مدينة القدس نفسها تتعرض لهجمات البدو، مما يؤدي ذلك كله إلى قطعهم للطرق إلى إليها وتغلق أسواقها، وتغزو منازلها عرضة للنهب ويأتي ذلك كله لأسباب عدة منها

(1) راجع التفصيلات في: سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط 2، (عمان: دار الشروق للطباعة والنشر، 1997)، ص 403 - 404.

إجراءات الإدارة المملوكية الصارمة أو الأوضاع الاقتصادية والمعيشية القاسية<sup>(1)</sup>.

ولعل أبرز القبائل البدوية في ناحية إقليم القدس، هي: بنو زيد، وهتيم وبنو عطا، وبنو عطية، وبنو عقبة والمرازيق<sup>(2)</sup>.



الشكل رقم (7): الرسم البياني لتناقص أعداد بدو ناحية القدس على امتداد (40) سنة

ومع هيمنة العثمانيين في القرن السادس عشر، استقرت بعض القبائل البدوية في قرى الناحية، ولعل أبرز من توطن من البدو:

1) قبيلة بني زيد بفخذيها: مشفعة ومناع. وذلك في قرى الشمال والشمال الغربي من القدس وقد خضعت لإحصاءين عثمانيين رسميين إذ بلغ عدد

(1) راجع ما كتبه عنهم مثلاً: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 5، ط 2، تحقيق: محمد مصطفى، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1960 - 1964)، ج 5، ص ص 393 - 395.

(2) اليعقوب، المرجع السابق، ص 89.

خاناتها سنة 1555م/963هـ (302) خانة ولكنه عدد تناقص في سنة 1596م/1005هـ ليغدو (266) خانة فقط<sup>(1)</sup> وحصيلة الأعداد:

$$(1) \quad 302 \times 5 = 1510 \pm \text{فرداً.}$$

$$(2) \quad 266 \times 5 = \pm \text{فرداً.}$$

(2) قبيلة هتيم التي تتألف من ثلاث جماعات قبلية كبرى، هي: الشقيرات براغشة والعساكره والعوازم التي انتشرت مواطنها المستقرة في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من الناحية والتي خضعت هي الأخرى لإحصاءين عثمانيين رسميين، فلقد بلغ عدد خاناتها سنة 1555م/963هـ (193) خانة، ولكنه - أيضاً - عدد تناقص في سنة 1596م/1005هـ، ليغدو (174) خانة فقط<sup>(2)</sup> وحصيلة الأعداد، هي:

$$(1) \quad 193 \times 5 = 965 \pm \text{فرداً.}$$

$$(2) \quad 174 \times 5 = 870 \pm \text{فرداً. (أنظر الرسم البياني في الشكل رقم 7).}$$

هكذا، إذا ما أحصينا أعداد المستقرين من البدو في الناحية على امتداد أربعين سنة سنجد أنهم:

$$(1) \quad \text{سنة 1555م/963هـ: } 1510 \times 965 = 2475 \pm \text{نسمة.}$$

$$(2) \quad \text{سنة 1596م/1005هـ: } 1330 \times 660 = 1990 \pm \text{نسمة.}$$

### العلاقات الاجتماعية:

تخبرنا المعلومات التاريخية والوقائعية الاجتماعية المحلية للقدس إبان القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، بأن العلاقات السكانية الداخلية قد اتصفت بالهدوء والمرونة والاستقرار، نظراً لما وفرتة الدولة العثمانية من أساليب ووسائل من خلال الإشراف المباشر على مركزية الإقليم الذي تمثله القدس وهي المدينة المقترنة في الذاكرة العثمانية بالشرف العربي فكانت

(1) دفتر طابو، رقم (516)، ص 21، 32، 33، 46 - 47.

(2) المصدر نفسه، ص 67 - 69.

الدولة قد سنت جملة تشريعات نظمت من خلالها طبيعة العلاقات السكانية بين الطوائف والملل سواء في داخل المدينة أم في أطرافها أم في أديرتها. وبقدر ما أولت الدولة رعايتها للمسلمين، فقد وفرت غطاء من الحماية الكاملة للنصارى واليهود وشؤونهم بترميم الأديرة ودور السكن الخاصة. وكانت الدولة قد عالجت بحكمة بعض التوترات التي حدثت بين المسلمين والمسيحيين سنة 978/1570هـ. تختلف الأوضاع الداخلية للعلاقات الاجتماعية منذ نهايات القرن المذكور مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي/الحادي عشر الهجري، نظراً لانعكاسات أوضاع الدولة إزاء الأوروبيين فحلت بعض الريبة بنصارى الدواخل العثمانية وخصوصاً في كنائسهم وأديرتهم<sup>(1)</sup>.

أما اليهود، فعلى الرغم من حالات السلم معهم، إلا أن ثمة توترات داخلية قد حدثت بينهم وبين المسلمين نتيجة لسوء تصرفات اليهود إزاء المسلمين وتسجيل بعض المخالفات مما زاد في شكاوى المسلمين. وحدثت بعض المنازعات الطائفية واستطاعت الدولة العثمانية أن تحلها من خلال القوانين وإصدار القرارات الشرعية، ولم يقتصر الأمر على المسلمين، بل اتسمت علاقة اليهود مع نصارى القدس بالحذر والريبة نظراً لتسجيل مخالفات عدة من قبل اليهود إزاء الكنائس المسيحية<sup>(2)</sup>.

أما طبيعة العلاقات بين الطوائف المسيحية، فقد اتسمت بالتقارب بعقدتهم عدة اتفاقيات في ما بينهم، وخصوصاً الاتفاق بين الروم والأقباط في 1538م/945هـ، أو بين الروم والأرمن والأحباش حول كنيسة القيامة واستخدام

(1) (77) راجع حول الوحدات الاجتماعية المتنوعة في القدس:

K.J. Asale. op.cit., p. 207.

وانظر عن طبيعة الحياة الاجتماعية العربية إبان العهد العثماني:

Sir H.A.R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West*, vol. 2, pt. 2, London, 1969, p. 288.

(2) تفصيلات حول العلاقات الاجتماعية مع اليهود، أنظر: Amnon Cohen, *Jewish life under Islam*, op.cit., pp. 71-4; and cf, idem, *The Jewish Community of Jerusalem...*, op.cit., pp.

الدوران إلى القبة... ثمة اتفاق آخر في 945هـ/1538م بين طوائف الأحباش والأرمن حول الأعياد، لكن هذا التقارب الطائفي سرعان ما انقلب إلى نزاعات وصراعات داخلية كالتّي حدثت بين طائفتي الروم الأرثوذكس واللاتين (الفرنجة) الكاثوليك حول كنيسة القيامة... ولم تقف الدولة العثمانية عاجزة عن الحلول بل تدخلت رسمياً وشرعياً لحسم المشاكل بإصدار قرارات من حاكم الشرع الشريف... وبطبيعة الحال لم تتوقف النزاعات الطائفية على دواخل المدينة بل امتدت إلى الكنائس والأديرة المنتشرة في أطرافها. ولم تكن جملة النزاعات المحتملة دينية بحتة، بل إن ثمة عوامل اقتصادية ذلك لأن الأطراف المتنازعة لم تتفق أصلاً على الضرائب التي يستوجب دفعها للدولة في الأعياد والمناسبات<sup>(1)</sup>.

أما بصدد الديموغرافية الفلسطينية عند نهايات القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري، فإن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية الأساسية لم تكن عالية مقارنةً بمدن أساسية أخرى في أقاليم عربية أخرى. وقد بقيت صفد هي الأكبر حجماً (12,000) نسمة، وبعدها القدس (8000) نسمة، ثم غزة (6000) نسمة ثم نابلس (4300) نسمة، ثم الخليل (3500) نسمة، ثم كفر كنا (2850) نسمة ثم مجدل (2800) نسمة وأخيراً اللد (2500) نسمة<sup>(2)</sup>. (أنظر الرسم البياني في شكل رقم 8).

### السياسات العثمانية

لقد كان عدد سكان بيت المقدس في بداية مرحلة العثمانيين تقريباً بحدود 4000 نسمة، وخلال عهد السلطان سليمان القانوني زاد 3 أضعاف أي

(1) التفصيلات في: اليعقوب، المرجع السابق، ص 99 - 101. (نقلاً عن: سجلات محكمة

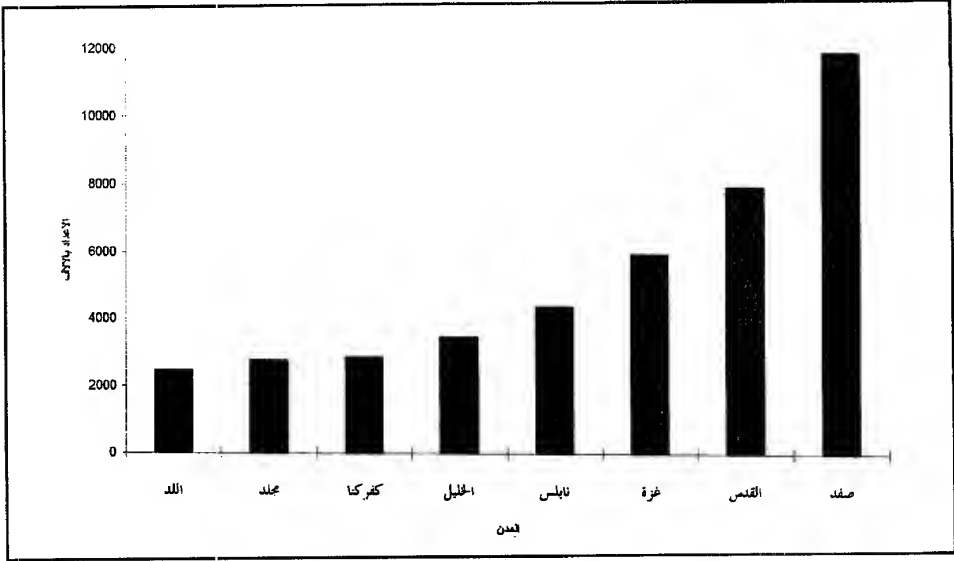
القدس الشرعية). وانظر مقارناً ومراجعاً: Ira M. Lapidus. Muslim Cities in the later

Middle Ages (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), p. 86.

G. Bateh, Les Chrétiens., op.cit., pp. 71-8, 86-7.

وراجع أيضاً:

cf. D. Hutteroth and Kemal Abdulfattah, op.cit., pp. 41-56.



الشكل رقم (8): ديموغرافية المدن الفلسطينية في نهاية القرن (16) الميلادي

أصبح 12000 نسمة؛ يشير برنارد لويس أنه يمكن أن يكون عدد اليهود فيه مكتملاً، ثم انخفض عدد السكان بفعل نقص تناسل اليهود نسبة للمسيحيين. وفي ذلك القرن كان مركز اليهود في صفد إذ لم يكن بيت المقدس موثلاً لهم كما هو الشأن بالنسبة للنصارى. وأهم إيرادات بيت المقدس بالدرجة الأولى الضرائب التي تجمعها الحكومة من كنيسة القيامة التي ازدادت ضرائب زوارها بنسبة 3 أضعاف (مثلاً: ازدادت من 40 ألف أقة في سنة 932هـ/ 1525م إلى 120 ألف أقة في سنة 1553/940م). تلك الضرائب التي تجمعها الحكومة ينفقها السلطان على قراء القرآن الكريم في المسجد الأقصى.

أما الجانب الثاني: فإن أهم الضرائب التي تأخذها الحكومة من بيت المقدس كانت ضرائب الجزية على الرؤوس (النفوس) من المسيحيين واليهود، ويدفع كل شخص قطعة ذهبية (وهي تساوي نصف قيمة الضرائب المفروضة على زوار كنيسة القيامة). فالضرائب مفروضة إذاً على الأنشطة الاقتصادية مثل احتساب شكل التعرفة والبيع وتصدير الصابون إلى مصر،

ولكن كان مقدارها أقل نسبة من ضرائب الزوار وضرائب الجزية<sup>(1)</sup>.

أما بالنسبة لسور المدينة، فإنه بني في عهد السلطان سليمان القانوني حول مدينة القدس؛ وعلى الرغم من كون هذا العلم من مكارم السلطان سليمان القانوني حول مدينة القدس، إلا أنه يشير بأن الحكومة العثمانية ليس باستطاعتها ولا بإرادتها حماية أمن بيت المقدس إدارياً وعسكرياً ولكن فقط لذكر السلطان وكرمه<sup>(2)</sup>. وخلال استيلاء الأتراك العثمانيين على مدينة القدس، وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلاد/الثالث عشر الهجري، فإن انعدام الأمن كان سبباً في عدم تطوير وارتقاء وتوسع المدينة وحتى لما قبل عهد حكومة السلطان سليمان، كان أمن الناس والأفراد الذين يسافرون بين الرملة والقدس مهدداً، وأغلب السواح والزوار الذين يأتون من الخارج إلى المدينة يهاجمون على يد إحدى جماعات البدو ممثلاً بأبي نمش الذي سميت إحدى القرى الجميلة الواقعة غربي القدس باسمه. وقد وصلت بعض الشكاوى ضد هؤلاء البدو الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب للسكان المسلمين ناهيك عن إحراقهم للمصحف المقدس القرآن الكريم ويأخذون من

(1) نجد معلومات تتضمنها الإنسكلوبيديا الإسلامية في نشرتها الحديثة (مقالة Alkuds) التي كتبها S.D. Goitein التي ذكرتها في أعلاه، ويشاركه عدد من المؤرخين: برنارد لويس وأمنون كوهن وي. إشتور وما كتبه أيضاً المؤرخ باتيه G. Bateh عن المسيحيين في فلسطين. لقد لاحظت أن هؤلاء المؤرخين والمستشرقين يحملون «النصوص» أكثر من طاقتها، بل وأن بعضهم يورد بعض المعلومات دون أن يوثقها.

(2) لا يمكن قبول هكذا «معلومات» ووجهات نظر مبسطة في الدور المهم الذي اضطلع به السلطان سليمان القانوني، ليس إزاء القدس فقط، بل إهتمامه بأساليب الأمن والاستقرار في كل المدن العثمانية وخصوصاً العربية... وهذا فحوى سياسته الإقليمية التي كرس من خلالها نزعة العثمينة في نظام الشرق الذي فرضه. أنظر:

Stanford J. Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol I, (Cambridge: Cambridge University Press, 1978), p. 103.

وانظر أيضاً: Solomon Steckoll, The Gates of Jerusalem, New York, 1968, p. 81

الزوار المسلمين الذين يدخلون بيت القدس (الخوة الترانسيت بالقوة)<sup>(1)</sup>.

وقد انعكست مثل هذه الحالات على تقارير ترجع تواريخها إلى سنة 991هـ/1583م. لقد صدر فرمان السلطاني في 1023هـ/1614م حول أصحاب الإقطاعات في سنجق بيت المقدس وأعفاهم من المشاركة في العمليات العسكرية خارج ذلك السنجق لأن هذا السنجق كان يقع في منطقة حدودية للجزيرة العربية التي يكثر فيها البدو الذين يثيرون الشغب وعدم الاستقرار<sup>(2)</sup>.

وحسب تقرير (جيوفاني ماريتي) صاحب الرحلة الشهيرة عام 1791 في أواخر القرن 12هـ/18م فإن باشا بيت المقدس يقوم مع حراسه العديدين، بمصاحبة الزوار المسيحيين حتى الأردن بعد دفعه لمبالغ مالية إلى البدو وبدونها ليس باستطاعته مصاحبتهم<sup>(3)</sup>.

وهناك سائح آخر يكتب في سنة 1212هـ/1767م، بأن جميع أطراف بيت المقدس تحت سيطرة البدو. هذه المشكلة سببها أن استانبول لم تكن مهتمة ببيت المقدس، بل فقط لجمع الضرائب حتى ولو كانت قليلة، وهي تعود إلى والي دمشق أو والي صيدا، ومن قبلهم والي مصر، وكان مندوب والي هو المتسلم في بيت المقدس، ولكن والي نفسه لا يزور القدس إلا مرة واحدة مع جيشه ويجمع الضرائب، حتى القرن 12هـ/18م، تقلصت

(1)

S.D. oitin, loc. cit.

نتفق معه من خلال مراجعتنا لبعض المصادر العربية التي أوضحت هذه الظاهرة التي استمرت طويلاً على إمتداد القرون السابع عشر والثامن عشر حتى القرن التاسع عشر، أنظر التفصيلات في: Sayyar K. Al-Jamil, A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-Ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-Umari (920-1226 A.H. = 1514/1515 A.D. - 1811/1812 A.D.), 3 vols., vol. 3 (Apparatus Criticus), (Scotland: St. Andrews University, 1983), p. 1050.

(2)

U. Heyd. Ottoman Documents., p. 171.

(3)

Details in, M. Ma'oz, Palestine during the Ottoman Period: Documents from archives and collections in Israel (Jerusalem, 1970), pp. 389-93.



عوائد الأنشطة الاقتصادية في المدينة حتى وصلت درجة الصفر. ففي إحدى قوائم الحسابات كان مقدار الإيرادات فقط (500 غرشاً) 12/1 منها يذهب إلى والي صيدا (أي بحدود 40 غرشاً) وكانت أكثر الضرائب تؤخذ من المسيحيين واليهود. لقد أصدر السلطان سليم الثالث فرماناً في 1205هـ/ 1791م يقضي بتقليص الضرائب من الزوار اليهود (في حدود 3 - 4 غروش إلى 1,5 غرشاً). وكان السلطان سليم الثالث قد أعفى اليهود من الضرائب الأخرى.

وهذا يدل بأن الزيادات في الضرائب الشائعة في ذلك الوقت كانت غير رسمية تؤخذ من قبل الموظفين<sup>(1)</sup>.

### الإشكاليات المتأخرة في الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس:

لقد بدأ سكان القدس بالزيادة في القرن التاسع عشر، وخصوصاً في النصف الأول منه (وعلى الأخص إبان حكم إبراهيم باشا (ابن) محمد علي باشا) لأسباب فرضتها الأوضاع الأمنية والاستقرار الذي شهدته القدس وأطرافها<sup>(2)</sup>. ولكن، لا بد لي أن أشير في نهاية هذه الورقة البحثية إلى أن ثمة اضطرابات واسعة في المعلومات التاريخية والديموغرافية عن القدس لما كان قد جرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر<sup>(3)</sup> (وخصوصاً بعد سنة

(1) راجع عن هذه التفصيلات في: M. Perlmann, «A seventeenth century exhortation concerning al-Aqsa» in Israel Oriental Studies, vol. III, (1973), pp. 261-92.

(مع تحفظاتي على استخدام المصادر التي اعتمدها هذا المؤرخ وإختلافي مع تفسيراته لبعض معلومات الرحالة والسياح).

(2) من المهم مراجعة ما احتواه الملف الذي أعده س. ن. سبايرون

S.N. Spyridon (ed.), Neophytes of Cyprus: Annals of Palestine, 1821-1841, Jerusalem, 1938, pp. 5-9, 21-2.

(3) أشير إلى أطروحة عبد العزيز عوض، متصرفية القدس في العهد العثماني 1874 - 1914 (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب/جامعة عين شمس، 1970 (بإشراف: أحمد عزت عبد الكريم). صفحات متعددة.

(1844). وهنا علي أن أنبه إلى عدة مسائل جوهرية بحاجة إلى بحوث ودراسات عربية عديدة تعالج التباينات والاختلافات في حالة التغيرات الاجتماعية والديموغرافية التي بدأت في القدس لصالح تكاثر أعداد اليهود على حساب كل من المسلمين والنصارى المسيحيين فيها<sup>(1)</sup>، وعلي أن أ طرح التساؤلات والإشكاليات التاريخية التالية:

(1) إذا كان عدد سكان القدس قد قفز بين سنة 1800م وسنة 1914 (أي: انفجار الحرب العالمية الأولى) من الرقم 10,000 نسمة إلى 80,000 نسمة، فهل زاد اليهود من ألف نسمة إلى 50,000 نسمة (كما تشير إلى ذلك الأدبيات الصهيونية في دعاويها الجديدة)<sup>(2)</sup>.

(2) إذا كان العثمانيون قد بدأوا بإصدار تنظيماتهم الخيرية منذ عام 1839م، ثم شروعههم بمنح الإداريين الامتيازات العثمانية على الأراضي العثمانية. فما هو دور تلك «الامتيازات» في تسهيل إقامة قنصليات ودوائر وهيئات أوروبية ألمانية وروسية وألمانية وفرنسية وإنكليزية؟ وبالتالي ما هو دور هذه المؤسسات الأجنبية الجديدة في عمليات الهجرات اليهودية نحو فلسطين (والقدس بالذات)؟

(3) ثمة اختلافات واسعة وتباينات كبيرة في الأرقام التي تزودنا بها ليس المراجع الحديثة، بل حتى المصادر الأصلية سواء كانت عثمانية أم بريطانية أم عربية أم كنسية أم صهيونية... الخ حول أعداد السكان (وبالأخص في

(1) تكمن الحاجة هنا إلى مزيد من الدراسات الوثائقية حول التباينات الديموغرافية باستخدام الوثائق العثمانية ومقارنة معلوماتها مع الوثائق البريطانية (على سبيل المثال لا الحصر: قارن معلومات أرشيف استانبول، خارجية وثائق لأعوام السبعينات القرن 19 مع أرشيف وزارة الخارجية البريطانية).

(2) لعل من أبرز الدراسات الرصينة (بالإنكليزية) التي عالجت دعاوى الصهيونية في الديموغرافية اليهودية في فلسطين، أنظر:

A. L. Tibawi, The Islamic Pious Foundations in Jerusalem: Origins, History and Usurpation by Israel (London: The Islamic Cultural Center, 1978), pp. 17-22.

القدس وحواليها) إبان حكم السلطان عبد الحميد الثاني 1876 - 1909، وهي بحاجة ماسة لدراسات تاريخية وبحوث معمقة ومقارنة للتوصل إلى مقاربات أقرب إلى الحقيقة.

(4) صحيح أن هرتزل قد أطلق دعوته الأولى لتأسيس كيان صهيوني في فلسطين عام 1897 في مدينة بال (أو: بازل) السويسرية، ولكن الهجرات اليهودية سبقت هذا التاريخ نحو القدس وفلسطين، إذ يمكننا مراقبة تزايد عدد اليهود من المهاجرين إلى القدس وغيرها من المدن الفلسطينية على إمتداد خمسين سنة سبقت المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897، وبالتحديد بعد صدور قوانين التنظيمات العثمانية منحت إمتيازات كبرى للأجانب. وكما يقول المؤرخ الطيباوي في بحثه الرصين: «لقد انحصرت الهجرة الجماعية بين 1864 و1876 (أي على امتداد 30 سنة، أي جيل كامل) وبصورة غير مباشرة وبمساعداً رسمية<sup>(1)</sup>؟ ثم أخذت لها مدى آخر من التدفقات للثلاثين سنة الأخرى، أي على عهد السلطان عبد الحميد الثاني 1876 - 1909. وخصوصاً بعد عام 1880 إثر المعاناة اليهودية في روسيا وأماكن أخرى.

(5) لقد قامت إسرائيل وبعض كتابها الصهاينة ومنذ تأسيسها، بنشر عدد من الأدبيات التاريخية والسكانية حول الديموغرافية في فلسطين. وحاول قسم كبير منهم وعلى رأسهم: منشورات الدولة الإسرائيلية بنشر معلومات ملفقة حول أعداد السكان اليهود في القدس أولاً وفلسطين ثانياً سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر. إن الباحثين العرب مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بإجراء فحوصات للأدبيات الصهيونية ونقد التشوهات والتزييفات التي يريد الإسرائيليون تثبيتها كحقائق تاريخية<sup>(2)</sup>.

Ibid., p. 52.

(1)

(2) أنظر على سبيل المثال لا الحصر:

- Baedeker, Handbook for Travellers (Palestine and Syria), 1876 ed.: pp. 161-2; 1898 ed., pp. 33, 51.

- Moshe Aumann, Israel Today No. 37: Jerusalem (Jerusalem: Israel Digest, 1968).

(6) لا يمكننا اعتبار أولئك المهاجرين اليهود الذين سكنوا القدس أو غيرها من المدن مواطنين عثمانيين ولا مواطنين فلسطينيين. وعليه، فلا يمكن للدارسين والباحثين أن يخلطوا بين اليهود الأصليين القدماء الذين تتناسب أعدادهم مع المسلمين والمسيحيين الأصلاء القدماء وبين اليهود المهاجرين الدخلاء! لماذا؟

على الرغم من تمتع المهاجرين الأجانب بمكانة معتبرة من قبل الدولة العثمانية، حتى أنهم لم يدفعوا أية ضرائب أو غرامات باعتبارهم حجيجاً، ولكنهم ما دامو قد أخذوا صفة الاستقرار، فإن الدولة لم تعدهم مواطنين، ولما كانوا من المقيمين فلم يمنحوا تراخيص إقامة مؤقتة. وعليه، فلا هم بمواطنين ولا هم بمقيمين!

(7) على الرغم من تضارب المعلومات الديموغرافية وتبايناتها التاريخية بالنسبة لأعداد سكان القدس واضطرابات زياداتها عند اليهود منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم إزاء نقصان أعداد المسلمين والمسيحيين فيها... دعونا نتأمل في الجدول الإحصائي التالي لسكان القدس:

جدول إحصائي بسكان مدينة القدس  
(من منتصف القرن التاسع عشر حتى عام 1967)

السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود	المجموع
1844	5000	3,390	7,120	15,510
1876	7,560	5,470	12,000	25,030
1896	8,560	8,748	28,112	45,420
1905	7,000	13,000	40,000	60,000
1913	10,050	16,750	48,400	75,200
1922	13,413	14,699	33,971	62,578
1931	19,894	19,335	51,222	90,503
1948	40,000	25,000	100,000	165,000
1967	54,963	12,646	195,700	263,309

## استنتاجات تاريخية:

لقد علمنا هذا «البحث» جملة من الإستنتاجات التاريخية التي بإمكانها خدمة مدينة القدس:

(1) لاقت مدينة القدس عدة تحديات تاريخية كبرى، لعل أبرزها على امتداد تاريخها المجيد، التحدي الصليبي والتحدي الصهيوني يفصل بينهما عشرة قرون كاملة، ولكنها عاشت أقسى تحدٍ توَسَّط تلك القرون بالضبط، وخصوصاً عند بدايات القرن السادس عشر، عندما أصابها انهيار مرعب في عدد سكانها الذي وصل إلى (3000) نسمة فقط ليس إلا! وقد استجابت لذلك التحدي المصيري وتجاوزته.

(2) وتعلمنا أيضاً، أن المعلومات التاريخية العثمانية عن السكان كلها صحيحة لا ارتياب فيها، لأنها مستمدة من دفاتر وسجلات رسمية. وقد وجدنا من خلال الدراسة والمقارنات تصاعد نسبة السكان جميعاً على العهد العثماني دون أية تميزات بين أهالي الأديان الثلاثة!

(3) وقد اطلعنا الدراسات التاريخية الحديثة والمتنوعة (بالعربية والإنكليزية) عن اهتمام عدد من المؤرخين بموضوع القدس في العصر الحديث، ولكن يبقى المؤرخون اليهود أكثر اهتماماً وإصدارات عن القدس مقارنة بالمؤرخين العرب الذين كتب بعضهم دراسات رصينة عن القدس، ولكنه لم يواصل أبحاثه عنها ويكثر من جهوده بدراسات حولها مقارنةً بغيرهم من المؤرخين والمستشرقين الذين أولى بعضهم معظم جهوده لتواريخ القدس. وعليه، فإن على المؤرخين العرب المختصين أكثر من مهمة علمية، أولها: إثراء تاريخ القدس وجوارها وثانيهما: الرد على تحليلات ووجهات نظر وأخطاء المؤرخين الإسرائيليين.

(4) يمكننا القول، أن عهد السلطان سليمان القانوني، هو المرحلة التأسيسية لاسترجاع مدينة القدس نموها الديموغرافي بعد أن وصلت إلى حالة سيئة يرثى لها. وتدلنا المعلومات التاريخية، أن العثمانيين قد اهتموا بالقدس

كثيراً في القرن السادس عشر، وكان ذلك مدعاة للنمو السكاني وانجذاب الناس إليها من جميع الأديان، ولكن سرعان ما ساءت أحوالها من جديد في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بفقدان الأمن والاستقرار.

5) لقد كان للامتيازات العثمانية في القرن التاسع عشر، دورها السلبي المؤثر على حياة القدس في القرن العشرين، نظراً لأن تلك «الامتيازات» أدت بطريقة غير مباشرة إلى نزوح وهجرة الآلاف المؤلفة من اليهود الأوروبيين إلى القدس... وتأثيرهم في ما بعد على الميزان الديموغرافي القديم مما سهّل على الصهيونية العالمية تأسيس كيان إسرائيل في فلسطين.